قليل من الشعر
كثير من العشق

محمد نجم

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
د. حسن أبو طالب

سلسلة كتب ثقافية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

نجم، محمد.
قليل من الشعر كثير من العشق.
تأليف : محمد نجم.-ط١ - القاهرة : دار المعارف، ٢٠١٥.
٢٦٨ ص؛ ٢٥ سم.
تدمك ٢ - ٨١٨٠ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨.
١ - الشعر العربى - تاريخ - العصر الحديث.
(أ) العنوان.

ديوى ٨١١,٩

رقم الإيداع ٤٥٣١ / ٢٠١٥ ١ / ٢٠١٤/٧٩

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

هؤلاء الشعراء

كنت قد تابعت بشغف هذه الصفحة فى مجلة أكتوبر التى يكتبها الصديق محمد نجم عن الشعراء العرب.. ولم أكن أتوقع أن يكون نجم عاشقا هكذا للشعر متذوقا له بهذا المستوى الرفيع الذى بدا فى هذه الحلقات.

وسعدت سعادة غامرة أن ينضم إلى محبى الشعر صديق أفنى فكره وقلمه فى عالمى الاقتصاد والسياسة.. وله فيهما رؤية نافذة.. مما يدل على أن فن الشعر يمكنه أن يجذب إليه الكثيرين حتى لو كانوا خارج الدائرة بمسافات يظن أنها بعيدة ومستحيلة.

وحينما انتهى الصديق محمد نجم من هذه الحلقات حدثته بضرورة جمعها فى كتاب يفيد القارئ المعاصر.. فاشترط علىّ أن أقدمه فى هذا الكتاب. ولم أتردد لحظة لأننى كنت سعيدا برشاقة قلمه وهو يسبح فى نهر الشعر الجارى فى العصور القديمة.

إن تراثنا الشعرى يستحق وقفات متنوعة سريعة وعميقة. وقد تحدى محمد نجم نفسه فى تقديم هذه المجموعة من الشعراء من هذا التراث الشعرى بأسلوب مختلف يجمع بين حسن الاختيار للمواقف التى عاشها الشاعر.. وبساطة العرض الذى يتلاءم مع قارئ العصر.. وأحسب أن ما فعله نجم سوف يحسب له فى عطائه العلمى.. والثقافى.

لقد قسم نجم الشعراء إلى طائفتين.. طائفة تضم أشهر الشعراء الكبار.. وطائفة أخرى تضم أشهر الشعراء العشاق والمتيمين.

وكان منهج نجم أن يعرف القارئ سريعا بالشاعر وإلى أى عصر ينتمى.. ثم يلتقط بعض المواقف التى عبر عنها الشاعر والتى ترسم ملامحه الشخصية والأدبية معا.. وهو بهذا يفتح باب الشوق إلى قراءة هؤلاء الشعراء الكبار بتوسع إذا شاء القارئ.

وقد يتعجب القارئ ويتساءل.. حين يرى الكاتب يذكر بعض الشعراء ويغفل بعضهم الآخر الذى قد لا يقلون تأثيرا فى تاريخ الشعر العربى.. لكن الكاتب هنا يستجيب لميوله وذوقه فى محبة الشعراء.. فلا لوم عليه إن أغفل شاعرا يحبه القارئ أو ذكر شاعرا لا يميل إليه القارئ.

الأمر إذا يتعلق بالكاتب نفسه.. ولعله – بذوقه الخاص – قد حاكى القدماء الذين سبقوه وهم يقدمون مختارات للشعراء.. ويزنون اختياراتهم تلك بميزانهم الخاص.

فعل ذلك قديما الأصفهانى فى كتابه (الأغانى) – والأصمعى فى (الأصمعيات) والمفضل الضبى فى (المفضليات) – وأبو تمام فى (الحماسة) والمرزبانى فى (معجم الشعراء) وغيرهم.. وسار على نهجهم من كتب عن الشعراء فى العصور التالية حتى العصر الحديث وأشهر من فعل ذلك البارودى فى مختاراته.

ولا يكاد يوجد كتاب قديم أو حديث أتى على الشعراء جميعهم.. لأن هذا ضرب من المستحيل.

لهذا فإن اختيار هذه الكوكبة من الشعراء يؤكد حب الكاتب للشعر والشعراء.. بل إنه نوع من اختياراته بينهم فمنهم من بدأ الشعر مثل امرئ القيس.. ومنهم من اشتهر بالهجاء والمقارعة مثل الفرزدق وجرير..

ومنهم من اشـتهر بالفروسـية والاعتداد بالنفس والفخـر مثل عمرو بن كلثوم والمتنبى وأبى فراس الحمدانى.. ومنهم من اشـتهر بالمجون مثل أبـى نـواس – ومنهم من عرف بالزهد مثل أبـى العتاهية.. ومنهم من كان مداحا للملوك مثل النابغة والبحترى وأبى تمام.. ومنهم من اشـتهر بالتصـوف كالحلاج.. ومنهم من عرف بالعشـق كعنـترة وعمرو بن أبى ربيعة ومسلم بن الوليد وقيس بن الملوح وغيرهم.

الكاتـب إذن يحاول فيما يقدم أن يشـبع نهم القـارئ مهما كانت ميوله.. ومهما كان ذوقه.. ويقدم وجبة شـهية سهلة الهضم يدخل بها القارئ سعيدا إلى عالم الشعر.

أحمد سويلم

الجزء الأول

امرؤ القيس.. الملك الضليل!

قـرأت كثيرًا فى كتب السـيرة ودواوين الشـعر، ولكـن كنت دائمًا أتوقف عند الفارس والشاعر العربى المبدع «امرؤ القيس»..

فأحداث حياته..دراما إنسانية.. موحية ومؤثرة، حيث قست عليه الأيام وعاندته الظروف..فتقلب بين النصر والهزيمة، والسعادة والشقاء.. والغنـى والفقر.. ومات وحيدًا ودفن بعيـدًا.. عن أهله وديارة. إنه امرؤ القيس بن حجر بن الحارث.. لقب بالملك الضليل.. لكثرة ترحاله وتنقله بـين القبائـل العربية مع نفر قليل من أهلـه وأعوانه.. وسمى أيضًا «ذا القروح» بسبب إصابته بمرض الجدرى، والذى كان سببًا فى وفاته.

كان والـده حجر بن الحارث ملكًا على بنى أسـد.. إحدى القبائل العربية الشـهيرة فى الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، وكان شاعرنا أصغر أولاده. فشب على ما كان ينشأ عليه أولاد الملوك العرب فى ذلك الزمان،حيث تعلم الفروسـية والشـعر، لكنه كان محبًا للهو واللعب.. مولعًا بمغازلة النسـاء.. ومن كثرة مغازلته لفتيات القبيلة.. غضب عليه والـده، ونهاه عن ذلك فلم يرتدع، فاضطر لطـرده، فجمع امرؤ القيس حولـه مجموعة من الفتيان والصعاليك.. وهـام بهم.. متنقلاً بين منازل العرب.. يلاعبهم وينازلهم.. وينشدهم الشعر.

وبينمـا هـو فى هذه «الحالـة» غير عابئ إلا بما هـو فيه، من المرح والمتعة، جاءه نعى أبيه.. وأن بنى أسد قتلته، فرفع رأسه إلى الرسول-

وكان يلعب النرد مع صديق له- قائلًا: ضيعنى صغيرًا، وحملنى دمه كبيرًا، لا صحو اليوم ولا سكر غدًا، اليوم خمر وغدًا أمر.. وآلى على نفسه، ألا يأكل لحمًا ولا يشرب خمرًا.. ولا يقرب الماء من رأسه.. حتى يأخذ بثأر أبيه ممن قتلوه وظل يطاردهم.. مرة يخطئهم، وأخرى يصيبهم، مستعينًا فى ذلك بأعمامه وكانوا ملوكًا على عدة قبائل عربية مختلفة.. حتى ظفر بهم.. وفى هذا يقول:

أحمى دروعهم فسربلهم بها والنار كحلهم بها تكحيلا
حلت له من بعد تحريم لها أو أن يمس الرأس منه غسولا
حتى أباح ديارهم فأبادهم فعموا فهم لا يهتدون سبيلا

أى إنه بعد أن ظفر بهم.. أحمى الدروع وألبسهم بها، وكحل أعينهم بالنار، وأباد ديارهم.. ومن نجا منهم.. هام على وجهه بين القبائل.

وأصبح من حقه أن يشرب الخمر ويغتسل بالماء، بعد أن كان قد حرمهما على نفسه.. حتى يأخذ بثأر أبيه.

تلك كانت نبذة سريعة عن حياة امرؤ القيس الفارس، الذى تحمل عبء أخذ ثأر أبيه دون أشقائه الآخرين.. وكانوا كثر ولكنهم تخاذلوا عن مساندته.

أما امرؤ القيس الشاعر.. فالحديث يطول حوله.. فقد كان مبتكرًا ومجددًا.. ويكفيه أن وصفه رسول الله (ﷺ) بحامل لواء الشعراء.

واقرأ معى ما قاله فى فترة الصبا واللهو.. فى قصيدة «تعلق قلبى» من رقة الغزل وجمال الوصف:

تعلـق قلبـــى طفلـــة عربيـــة تنعَّم فى الديباج والحلى والحلل
لهـا مقلـة لو أنهـا نظرت بهـا إلى راهـب قـد صـام لله وابتهـل
لأصبـح مفتونًا.. معنّـى بحبها كأن لـم يصـم لله يومًا ولم يصـل
فتلك التـى هـام الفـؤاد بحبهـا مهفهفـة بيضـاء دريـة القبـل

أو عندما شـبه نفسـه بالفأر الذى حاولت القطة صيده، ولكنه أفلت منهـا، ومع ذلك فهو حزين.. لأنه لم يأخذ بثأره.. حيث رمته بسـهم عينيها.. فأصابت فؤاده!

وهـر تصيـب قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمر حجر
رمتنى بسهـم أصاب الفؤاد غداة الرحيـل.. فلـم أنتصر

واقرأ له فى معلقته الشهيرة والتى تبدأ بـ «قفا نبك من ذكرى حبيب منـزل».. معتزًا بكرامته.. قويًا صلبًـا.. على الرغم من أن دموع حبيبته كانت كالسهم الذى ضرب أجزاء قلبه المفعم بحبها!

أغرك منـى أن حبـك قاتلـى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وأنك قسمـت الفؤاد فنصفـه قتيـل ونصف فى حديد مكبل
فما ذرفـت عيناك إلا لتضربـى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وعندما ضاقت به الأرض رغم براحها وتكالبت عليه الهموم، وصف ظلمـة الليل الذى تمدد بجسـده والتحـق أوله بآخره، بأمـواج البحر المتلاطمـة حاملة معها كافة أنواع الهمـوم.. وكأنها تختبر صلابته وقوة تحملـه، ومـع أن الصبح ليس أفضل من الليل الطويل فهو يناشـده أن

يرحل ويكفيه ما هو فيه!

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بجوزه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلى ... بصبح وما الأصباح منك بأمثل

رحم الله امرؤ القيس.. مات وحيدًا ودفن غريبًا.. بعد أن عاش شريدًا معذبًا بثأر أبيه.. ولم يكن يأمل من صروف الدهر خيرًا.. وهو يعلم أن الزمن يذيب الصخور الصماء!

وقد طوفت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب
أبعد الحارث الملك ابن عمرو ... وبعد الخير حجر ذو القباب
أرجى من صروف الدهر لينا ... ولم تغفل عن الصم الهضاب!.

□□□

١ - النابغة.. الشاعر [١ - ٣]

هــو ابــن زياد بن معاوية بــن ضباب من قبيلة ذبيــان، يعده النقاد أحد أمراء الشــعر وزعماء القول.. فقد كان من أحســن الشــعراء ديباجة وأكثرهــم رونقًا فى الــكلام وأجزلهم فى أبيات الشــعر، وكنى بالنابغة لســببين: الأول وهو الأرجح.. لأنه لم ينطق بالشــعر إلا بعد ما بلغ من العمر أرذله وشــاب الشــعر منه، فقد نبع الشعر منه فجأة بعد مشيبه، كما أن شــعره تميز بالجودة والفصاحة والقوة فى اللفظ وحسن التعبير.. لدرجة أن شعراء عصره وعلى رأسهم الخنساء والأعشى وحسان بن ثابت وغيرهم اختاروه «محكما» ومرجعا لهم، حيث كانت تنصب له «قبة» من الجلد فى ســوق عكاظ.. ويأتيه الشــعراء ليعرضوا شعرهم عليه.. فيقيمه ويجيزه.. ويعطى لكل شاعر رتبته بين أنداده.

أما الســبب الثانى: فقد قيل إنه سُمى بالنابغة لأنه قال هذا البيت فى إحدى العشائر:

وحلت فى بنى القين ابن جسر فقــد نبغــت لنــا منهــم شــئون

المهم أنه نبغ على قومه ومعاصريه بالشــعر فى نهاية عمره.. فتســيد قومه، واحتكم إليه شعراء عصره.

وكعادة الشعراء فى ذلك العصر (الجاهلى) مدح النابغة ملوك الحيرة فى العراق (المناذرة) وملوك الغساسنة فى الشام وغيرهم من الأمراء والشيوخ.

ولكن المحطة الأساسية فى حياته الشعرية.. أنه كان صديقا ونديما للنعمـان بن المنـذر ملك الحيرة الملقب بـ (أبو قابوس) وقال فيه شـعرا كثيرا.. كان النعمان يستحسـنه دون سـواه ويجزل له العطاء بسـببه.. ومنه:

متـوج بـالمعـالـى فـوق مفـرقـه
وفـى الوغـى ضيغـم فى صورة القمر
أخـلاق مجـد تجلـت مـالهـا مثـل
فـى البأس والجود بين الحلم والخفر

ولكنه تغـزل بزوجة النعمـان «المتجردة» وكانت شـديدة الجمال، وكانت على علاقة بشـاعر آخر هو المنخل اليشكرى، وقال فيها النابغة عندما أسقطت زرار جلبابها:

سقـط النصيـف ولـم ترد إسقاطه فتناولتـــه واتقتنـا باليـــد
نظـرت إليك بحاجـة لم تقضهـا نظـر السقيـم إلى وجـود العَّود

وكانت هذه القصيدة سببا فى أن وشى به (غيرة وحسدا) شعراء الملك الآخرون ومنهم عبد القيس التميمى ومرة السـعدى.. واستشهدوا ببعض أبيات أخرى قالها فى المتجردة.. ومنها قوله:

زعـم الهمـام بـأن فاهـا بارد عـذب مقبلـه شهـى المـورد
زعـم الهمام - ولـم أذقه - بأنه عذب متـى مـا ذقته قلت: أزدد

هذا إلى جانب أبيات أخرى.. مثل قوله:

وإذا طعنت طعنت فى مستهدف رامى المجسة بالعبير مقرمد
وإذا نزعت نزعت عن مستحصف نزع الحزوَّر بالرشاءِ المحصد
وإذا يعض تشده أعضاؤه عض الكبير من الرجال الأدرد

وقالوا للملك.. لا يصف هذا الوصف الباطن إلا من جرب! فغضب النعمان على النابغة وهم بقتله ولكنه تمكن من الهرب وذهب إلى ملوك الغساسنة فى الشام واحتمى بهم وقال فيهم شعرا كثيرا.. منه:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجيشان أول غالب
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
توارثن من أزمان يوم حليمة إلى اليوم قد جربن كل التجارب

وهو يشير فى مدحه للغساسنة إلى انتصارهم على المناذرة، حيث قتل الحارث بن شمر ملك عرب الشام (الغساسنة) المنذر بن المنذر ملك عرب العراق (المناذرة) ونسبت المعركة إلى (حليمة) بنت الحارث بن أبى شمر، لأنها كانت تحرض عسكر أبيها على القتال، ويزعم بعض المؤرخين أنه بسبب شدة القتال.. ارتفع الغبار فى ذلك اليوم، وتكاتف حتى سد عين الشمس.. وظهرت الكواكب!

وقد زعم المؤرخون أن الخليفة أبا بكر الصديق كان يقدم النابغة على غيره من الشعراء، وكان يقول إنه أحسنهم شعرا وأعذبهم بحرا، كما أن الخليفة عمر بن الخطاب أيضا كان يصفه بأشعر الناس.. وكان دائما يردد ما قاله النابغة ومنه.. قوله:

إلى ابـن محـرق أعملت نفسى وراحلتـى وقـد هدت العيـون
أتيتـك عاريـا خلقـا ثيابـى علـى خـوف تظـن بى الظنون
فوفيـت الأمانـة لـم تخنهـا ومـن يك فى نصابك لا يخون

ولكن طوال ملازمة النابغة لملوك الغساسنة.. ناله ما ينال مصاحب السلطان، فلم يصف له العيش بينهم بعد موت ممدوحه الحارث بن عمرو الغسانى، فقد تنكر له خلفه بسبب سوء العلاقة بينه وبين قوم النابغة (ذبيان) وحلفائهم بنى أسد، وهو ما دفعه لأن يعود إلى بلاده وقومه فى الحجاز، ويستعيد ذكرياته مع ملوك المناذرة وأعطياتهم السخية، وما كان له عندهم من منزلة وتكريم، فعاوده الحنين للعودة إليهم فأنشد القصائد فى مدحهم.. والاعتذار لهم، والتنصل مما أشاعه عنه خصومه وحساده، ولجأ لأصدقائه من زعماء قبائل فزارة ليتشفعوا له عند الملك النعمان.. وكان يعلم أن الملك لا يرد لهم شفاعة.. فصفح عنه.. ومنحه ما تعود من أعطيات..

ومن ثم كانت قصائده الشهيرة بالاعتذاريات.. ومنها القصيدة التى مطلعها:

يا دار ميـة بالعليـاء فالسنـد أقوت وطال عليهـا سالف الأمد

□□□

٢- النابغة.. السياسى! [٢ - ٣]

الحق أن النابغة لم يكن شاعرا مداحًا للملوك وللأمراء لينال عطاياهم.. فقد كان من سادة قومه.. ولعب دورا سياسيا فى حرب داحس والغبراء الشـهيرة فى الجاهلية.. كما كان ملوك المناذرة والغساسـنة وغيرهم من الأمراء وزعماء القبائل يقدرونه.. ويقبلون وساطته فى الإفراج عن الأسرى بين القبائل المتحاربة، ولكن كانت هذه عادة الشـعراء فى الجاهلية أن يقصدوا الملوك ليصادقوهم وينادموهم لينالهم من نعيمهم نصيب.. ويتقوا شـرهم ضـد قومهم، فقد كان المناذرة والغساسـنة فى حـروب دائمة.. وكان الكثير من القبائل يحتمى بأحدهما ضد منافسيه.. بل الطريف أن المناذرة كانوا يحتمون بالفرس والغساسنة بالروم!

ومـن ثم كان للشـعراء دور كبير فى هذا المعترك السياسـى لحماية قبيلتهـم أو الحصول على «أرض» إضافية كمرعى لإبل القبيلة.. وهو ما كانت تقوم الحروب بسببه..

فقد ذهب النابغة الذبيانى إلى الملك الغسـانى الحارث بن أبى شمر ليكلمه فى أسـرى بنى أسد وكانوا حلفاء غطفان وذبيان (قوم النابغة)، فأعطـاه إياهم وأكرمه، ولكنه حذره من حصن زعيم الفزارين أصدقائه.. فقد بلغه أنه يجمع عليه القبائل:

وها هو النابغة يصف ذلك فى شعره:

إنـى كأنـى لـدى النعمـان خبَّره بعـض الأود حديثـا غير مكذوب
بأن حصنـا وحيـا من بنى أسد قاموا فقالـوا: حمانا غير مقروب
ضلـت حلومهـم عنهـم وغرهـم سـن المعيـدى فـى رعى وتعذيب

ثم يصف أسرى بنى أسد الذين تمكن من فك أسرهم:

لم يبـق غيـر طريـد غيـر منفلـت ومـوثق فـى حبـال القـد مسلـوب
أو حـرة كمهـاة الرمـل قـد كبلت فـوق المعـاصم منهـا والعـراقيـب
تدعو قعينا وقد عض الحديد بها عض الثقـاف علـى صم الأنابيـب

فقد كانت نسـاء بنى أسـد.. وهن كالمهاة فى حُسـن عينيها مقيدة بحديد يوجعهن، وهن ينادين على قومهن: يالقعين.. طلبا للنجدة!

ومرة أخرى يتدخل النابغة لدى الغساسـنة من أجل قومه، فقد كان للغساسنة واد اسمه «أقر» مملوء عشبًا ومياها، فجارت عليه بنو ذبيان، فنهاهم النابغة وحذرهم وخوفهم من إغارة الملك عليهم، فعيروه بخوفه.. وهو ما حدث فعلا:

وفى ذلك يقول النابغة:

لقـد نهيـت بنى ذبيان عن أقر وعـن تربعهـم فـى كـل أصفارِ
وقلـت: يا قوم إن الليث منقبض علـى براثنـه لوثبـة الضـارى
وعيرتنـى بنـو ذبيـان خشيته وهـل علـى بأن أخشاك من عار

وحـين أغار النعمان بن وائل الكلبى علـى بنى ذبيان وهزمهم أخذ منهم النسـاء سـبايا، ومنهن عقربًا ابنة النابغة.. فسـألها: من أنت؟

فقالت: أنا بنت النابغة، فقال لها: والله ما أحد أكرم علينا من أبيك، ولا أنفع لنا عند الملوك، ثم جهزها وخلاها، ثم قال: والله ما أرى النابغة يرضى بهذا منا، فأطلق الأسرى كلهم.

وفى هذا يقول النابغة:

لعمرى لنعم الحى صبح سر بنا وأبياتنا يوما بذات المراود
يقودهم النعمان منه بمحصف وكيد يعم الخارجى مناجد
أصاب بنى غيظ فأضحوا عباده وجللها نعمى على غير واحد

وللنابغة قصيدة جميلة يعدها النقاد إحدى معلقات الشعر العربى.. قالها فى مدح عمرو ابن الحارث الغسانى بعدما هرب من عرب العراق (المناذرة) إلى عرب الشام.. وقد بدأها على نظم امرئ القيس عندما خاطب الليل الذى لا ينجلى عن صبح ليس بأفضل منه، وهنا يخاطب النابغة أميم ابنته أن تتركه لهمه يقاسى الليل الذى لا تتحرك كواكبه:

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىءِ الكواكبِ
تطاول حتى قلت: ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآيب
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وكما كان النابغة علاّمة فى المدح والاعتذار.. كان ذلك أيضا فى الرثاء.. فها هو يرثى صديقه حصن زعيم الفزارين بقوله:

يقولون حصن، ثم تأتى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جنوح
ولم تلفظ الأرض القبور ولم تزل نجوم السماء والأديم صحيح

فعمّا قليل ثم جاش نعيه فبات ندى القوم وهو ينوح

كما قال أيضا يرثى أخاه وأمهما عاتكة بنت الأشجعى، وكان قد ذهب يستعيد إبلا له.. فمات:

لا يهنئ الناس ما يرعوْن من كلأٍ
وما يسوقون من أهل ومن مالِ
بعد ابن عاتكة الثاوى لدى أبوى
أمسى ببلدة لا عم ولا خال
حسب الخليلين نأى الأرض بينهما
هذا عليها وهذا تحتها بال

ولم يخل شعر النابغة أيضا من «الحكمة» وإن لم تكن فى شهرة حكمة المتنبى.. لكن لا يمكن تجاهلها:

من يطلب الدهر تدركه مخالبه والدهر بالوتر ناج غير مطلوب
ما من أناس ذوى مجد ومكرمة إلا يشد عليهم شدة الذيب
حتى يبيت على عمد سراتهم بالنافذات من النبل النصاصيب
إنى وجدت سهام الموت معرضة.. بكل حتف من الآجال مكتوب

□□□

٣- اعتذاريات النابغة [٣ - ٣]

لم يطب العيش للنابغة لدى الغسانيين بالشام بعد وفاة صديقه الملك الحارث.. فقد تبدلت الأحوال بالنسبة له.. فلكل دولة رجال.. وهو الشيخ المجرب.. فحمل متاعه وعاد إلى قومه «بنى ذبيان» فى الحجاز، وعاوده الحنين إلى صديقه القديم الملك النعمان بن المنذر الذى غضب عليه بعد أن وشى به البعض عنده، فوسط أصدقاءه من الفزارين ليكلموا النعمان بشأنه، كما أخذ يعلن عن العديد من قصائده فى مدح النعمان وملوك المناذرة.. وهى التى سميت «بالاعتذاريات» لكثرتها وشهرتها.

وقد بدأت المصالحة عندما استأذن الفزاريون الملك النعمان لزيارته فأقام لهم خيمة كبيرة ليقيموا فيها ومعهم مغنية للترفيه عنهم ولم يكن يعلم أن النابغة معهم، وطلب الأخير من الجارية أن تتغنى ببعض أشعاره التى يقول فيها:

أنبئت أن أبا قابوس أوعدنى ... ولا قرار على زأر من الأسدِ
مهلا فداء لك الأقوام كلهم ... وما أثمر من مال ومن ولد
فلا لعمر الذى مسحت كعبته ... وما أريق على الأنصاب من جسد

فالشاعر يقسم بالكعبة التى حج إليها وبالدماء التى سالت على أجساد الأصنام، كما يدعو بشلل يده وعدم استطاعتها رفع سوطه إذا كان ما وصله عنه صحيح.

المهـم.. أنـه عندما سمع النعمان ما تقوله الجارية أقسـم أنه شـعر النابغة، فسأل عنه وأخبروه بأنه مع الفزارين.. فعفا عنه.. وقربه منه.. فعادت سيرتهما الأولى.

وكان النابغة كعادة شعراء الجاهلية يبدأ قصائده سواء كانت للمدح أو الاعتذار أو الفخر بالبكاء على الأطلال، ثم يدخل إلى الموضوع الأساسى.. وهو هنـا فى أول اعتذارياته للنعمان فى قصيدته الشـهيرة «يا دار مية بالعليـاء فالسـند» يبكى على الأطلال التى كانت عزيزة بسـبب ارتفاع مبانيهـا التى أقيمت على مكان عال.. فضلًا عن اسـتنادها على الجبل المجاور لها.. ووقف بها قليلًا.. يسـألها، ولم يجـد أحدًا بالمكان يرد عليه.

وبعدهـا يبـدأ بالتعبير الذى اشـتهر عنه والذى كـرره فى أكثر من قصيدة «أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى».

حيث يقول فى تلك القصيدة:

يـا دار ميـة بالعليـاء فـالسنـد
أقوت، وطال عليهـا سـالف الأمـد
وقفـت فيهـا أصيـلانـا أسائلهـا
عيَّت جوابا، وما بالربع من أحـد
أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا
أخنى عليها الذى أخنى علـى لبـد

وبعـد العديد مـن الأبيات التـى يصف بها حال المـكان، وناقته،

وعمليات الصيد بالكلاب.. إلخ.. يخاطب النعمان بقوله:

فتلك تبلغنى النعمان، إن له
فضلًا على الناس فى الأدنى وفى البعد
ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه
ولا أحاشى من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له
قم فى البرية فاحددها عن الفند

ويواصل المدح.. مذكرا إياه بما أعطاه له وهو كثير.. من نوق وخيول.. ثم يصل إلى الاعتذار الصريح:

هذا الثناء فإن تسمع به حسنا
فلم أعرّض - أبيت اللعن - بالصفد
ها إن ذى عِذرة إلا تكن نفعت
فإن صاحبها مشارك النكدِ

ثم يعاود الكرّة فى قصيدة أخرى.. فيشرح موقفه ويطلب العفو.. مذكرا إياه بعدالة الله فى الأرض!

أتانى - أبيت اللعن - أنك لمتنى
وتلك التى تستك منها المسامعُ
مقالة أن قد قلت سوف أناله
وذلك من تلقاء مثلك رائع

أتـاك امـرؤ مستبطـن لـى بِغضـةً
لـه مـن عـدو مثـل ذلـك شافـع
أتـاك بقـول لـم أكـن لأقولـه
ولـو كُبِلـت فـى ساعدىّ الجوامع
حلفـت فلـم أتـرك لنفسك ريبـة
وهـل يأثمـن ذو إمـة وهـو طائـع
فإن كنت لا ذو الضغن عنـى مكـذَّب
ولا حلفـى علـى البـراءة نـافـع
ولا أنـا مـأمـون بشـىء أقولـه
وأنـت بـأمـر لا مـحـالة واقـع
فإنـك كـالليـل الـذى هـو مـدركى
وإن خلّـت أن المنتـأى عنـك واسـع
أتـو عـد عبـدا لـم يخنـك أمـانـة
وتتـرك عبـدا ظـالمـا وهـو ضـالـع
وأنـت ربيـع ينعـش النـاس سيبـه
وسيـف أعيـرتـه المنيـة قـاطـع
أبـى الله إلا عـدلـه ووفـاءه
فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

إننـى لم أجرؤ على اختصار الأبيات.. لحسـن بيانها وقوة ألفاظها وجمـال معانيها ونعومة موسـيقاها.. فبعد التوضيـح والاعتذار.. يصفه

بالليل الذى يدرك الجميع (هيروح منه فين) وهو الربيع وهو السيف.. وكيف له أن يتوعد عبدًا لم يخنه ويترك الظالم.. أين عدل الله على الأرض.. فلماذا ننكر المعروف ونضيع العرف؟

وهذه قصيدة أخرى.. وصفت بأنها أجمل ما قيل فى الاعتذاريات:

أتانى - أبيت اللعن - أنك لمتنى ... وتلك التى أهتم منها وأنصبُ
فبت كأن العائدات فرشننى ... هَراسا به يُعلى فراشى ويقشب
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
فلا تتركنى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مطلى به القار أجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
فإن آك مظلوما فعبد ظلمته ... وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب

أنت كالشمس والملوك كواكب.. فكيف تظلمنى وأنا العبد، وإن يكن ذلك عتاب.. فمن غيرك يعاتبنى!

ونختم بما يشبه الرثاء عندما علم بمرضه وشبه وفاته:

أحاديث نفسى تشتكى ما يريبها
وورد هموم لن يجدن مصادرا
تكلفنى أن يغفل الدهرُ همها
وهل وجدت قبلى على الدهر قادرا؟
ألم تر خير الناس أصبح نعشه
على فتية قد جاوز الحى سائرا

ونحـــن لـديـــه نســـأل الله خلـــده

يـــرد لنـــا ملكـــا ولـــلأرض عـامـــرا

لك الخير إن وارت بك الأرض واحدا

وأصبح جـد النـــاس يظلـع عاثـــرا

□□□

لبيد بن ربيعة.. الفروسية والكرم

هــو لبيد بــن ربيعة العامرى من هوازن قيــس، كنى بـ «أبى عقيل» لامتلاكه ناصية الشــعر.. فهو أحد أصحاب المعلقات الشعرية فى العصر الجاهلى.. وكان صاحب نفس ذكية ويعتقد بوجود إله واحد أحد.. وقد رأس وفد قومه بنى عامر عندما قدموا على رسول الله.. وأسلموا جميعًا، ويقول الرواة إنه عاش أكثر من ١٣٠ عامًا، وإنه هجر الشعر بعد إسلامه وحفظ سورتى البقرة وآل عمران كاملتين.

ولكن أطرف ما يروى عن لبيد وهو صغير أنه لاحظ غضب قومه بنى عامــر من الربيع بن زياد من قبيلــة عبس.. وكان مقربا من ملك الحيرة النعمــان بن المنذر.. وكان يســىء لهم عند الملك ممــا يدفعه للتأخر فى تلبية مطالبهم، فســألهم لبيد: ما الخبر؟ ولكنهم تجاهلوه لصغر سنه.. فأنذرهــم بألا يرعى لهم غنما ولا يروى لهم إبلا ولا يســرج رحالهم إن لم يخبروه، فقال له عمه: خالك الربيع يســىء إلينا عند الملك، فطلب منهم أن يجمعوه مع الربيع ليزجره عنهم بقول مؤلم لا يلتفت إليه الملك بعده أبدًا.

فأدهشــهم قوله وعزمه وأرادوا أن يمتحنوه، فطلبوا منه شــتم عشبة طفيليــة وصفت بثبات جذورها فى التربة، فاندفع يقول: هذه التربة لا تؤهــل دارا، ولا تزكى نارا، ولا تســتر جــارا.. عودها ضئيل، وفرعها كليــل، وخيرهــا قليل.. نبتها خاشــع، وأكلها جائــع، والمقيم عليها

ضائع.. أخبث البقول مرعى، وأقصرها فرعا، فتعسا لها وجدعا.. ألقوا بـى أخا عبس.. أرده عنكم بتعـس، وأتركه عن أمره فى لبس، فحلقوا رأسـه وألبسوه ملابس الفرسـان واصطحبوه معهم إلى النعمان واستأذنوا فـى الدخول عليه.. وكان الربيع معه وهما يأكلان فتقدم لبيد.. واقترب من الملك.. وأخذ يهجو الربيع مخاطبا النعمان:

يا رب هيجا هى خير من دعه ... أكل يـوم هامتـى مفزعـة
نحـن بنـو أم البنيـن الأربعـة ... ومـن خيـار عامـر بـن صعصعه
يا واهب الخير الكثير من سعه ... إليـك جاوزنـا بـلادًا مسبعـه
يخبـر عـن هذا بخيـر فاسمعـه ... ولا أبيـت اللعـن لا تأكـل معه
إن أستـه مـن بـرص ملمعـه ... وإنـه يدخـل فيهـا إصبعه!

وبعدما انتهى لبيد من إنشاد «أرجوزته» نظر الملك شزرا للربيع قائلا: أكذا أنت؟.. وطرده من مجلسه وأكرم وفد بنى عامر وقضى حوائجهم.

ومن ذلك اليوم صار «لبيد» شاعر قومه، يعدد بالفخر أيامهم، ويدافع بالحماسة عن أنسابهم.. حيث يقول فى معلقته:

إنـى إذا التقت المجامع لم يزل ... منـا لزاز عظيمـه جشامهـا
فضلا وذو كرم يعين على الندى ... سمـح كسـوب رغائـب غنامها
مـن معشـر سنـت لهم آباؤهم ... ولكـل قـوم سُنّـة وإمامهـا
لا يطبعـون ولا يبـور فعالهم ... إذ لا يميـل مع الهوى أحلامها

فعندما تلتقى القبائل يسـودهم رجل من قومه يقمع الخصوم ويتجشم

عظائـم الخصام، ويفعل ذلك تفضلا لأنه جواد، وهذه سُـنّة أسـلافه، فعقولهم لا تميل مع أهوائهم.

وماذا أيضا يا لبيد؟

وهم السعاه إذا العشيرة أفظعت وهـم فوارسهـا وهـم حكامهـا
وهـم ربيـع للمجـاور فيهـم والمرمـلات إذا تطاول عامهـا
وهـم العشيـرة أن يبطئ حاسد أو أن يميـل مـع العـدو لئامها

نعم كان لبيد فارسـا وسـيدا فى قومه.. وكريما فى عشـيرته حيث اعتاد سـنويا أن يذبح المئات من النوق لإطعـام اليتامى والجار الغريب والقواعد من النسـاء اللاتى عجزن عن الحركة وتدبير شـئونهن فتدثرن بالخِلَق البالية.. حيث يقول:

وجـزور أيسـار دعـوت لحتفهـا بمغالـق متشابـه أجسامهـا
أدعـو بهـن لعاقـر أو مطفـل بذلـت لجيـران الجميع لحامها
فالضيـف والجار الجنيب كأنمـا هبطـا تبالـة مخضبـا أهضابهـا
تأوى إلـى الأطنـاب كـل رزية مثـل البليـة قالـص أهدامهـا

ولم يخل شـعر لبيد – كبقية أصحاب المعلقات – من الحكمة ولكن تميز شـعره بسهولة الكلمات وبساطة المعانى، مع نفحة إيمانية.. فلكل أجـل كتاب لا تقـدر ضاربات الحصى ولا أنصار التشـاؤم والتفاؤل أن تستكشفه أو تتنبأ به.

ومـا المـال والأهلـون إلا ودائـع
ولابـد يـومـا أن تـرد الـودائـعُ

وما الناس إلا عاملان فعامل
يُتبر ما يبنى، وآخر رافع
فمنهم سعيد آخذ بنصيبه
ومنهم شقى بالمعيشة قانع
أتجزع مما أحدث الدهر بالفتى
وأى كريم لم تصبه القوارع؟
لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ويبدو أن شاعرنا عندما امتد به العمر.. قد سئم الحياة، فقد ولى الشباب وطالت شيخوخته.. وتشابهت أيامه ولياليه:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد
غلب العزاء وكنت غير مغلَّب دهر طويل دائم ممدود
يومًا أرى يأتى علىَّ وليلة وكلاهما بعد المضاء يعود
وأراه يأتى بعد يوم لقيته لم ينصرم وضعفتُ وهو شديد

ويحكى أن عثمان بن مظعون جلس إلى جماعة من قريش ومعهم لبيد.. فأنشد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ

فقال له عثمان: صدقت.. فقال لبيد

وكل نعيم لا محالةَ زائلُ

فقال عثمان: كذبت لأن نعيم الجنة لا يزول..!

أعشى قيس.. صنّاجة العرب

قال الأقدمون إن أشعر شعراء العرب فى الجاهلية أربعة.. هم: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير بن أبى سلمى إذا رغب، والأعشى إذا طرب.

وهم بذلك يعنون أن هؤلاء الشعراء كانوا يقولون أفضل أشعارهم فى الحالات الآتية: امرؤ القيس إذا ركب أى عندما يمتطى فرسه.. وكلنا نذكر قوله:

وقد اغتدى والطير فى وكناتها بمنطلق قيد الأوابد هيكل

وكذلك قوله واصفا فرسه:

مكر مفر مقبل مدبر معا

كجلمود صخر حطه السيل من عل

أما النابغة فمشهور باعتذارياته للملك النعمان ملك الحيرة فقد رهب عقابه وأراد وصله: ومنها ما قاله:

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب

إلى آخر القصيدة.. ومنها أيضا:

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وكذلك زهير بن أبى سلمى عندما يرغب فى مدح أحد الملوك أو الأمراء أو شيوخ القبائل.. مثل:

تراك ما إذا جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

أما الأعشى فقد لقب بصنّاجة العرب.. حيث كان يقول أجود الشعر والذى تتغنى به المغنيات فى الدواوين والحانات، مثل قوله:

قالت هريرة لما جئت زائرها ويلى عليك وويلى منك يا رجل
أما ترانا حفاة لا نعال لنا إنا كذلك ما نخفى وننتعل

وهو دليل الخفة والرقة فى الملبس والمشى. والأعشى هو ميمون بن قيس.. ولقب بذلك بسبب ضعف بصره.. وأصابه العمى فى أواخر عمره بعد أن طال الزمان به ووصل إلى التسعين، وسمى بأعشى قيس.. تمييزا له عن بقية الشعراء الذين لقبوا بتلك الصفة ومنهم أعشى بنى ربيعة وأعشى همدان وأعشى بن سليم.. وغيرهم من فحول الشعراء فى الجاهلية.

وكانت لديه نقطة ضعف يهجوه بها الشعراء منها.. حيث لقب أبوه قيس بن جندل بقتيل الجوع.. سماه بذلك الشاعر جهنام فى معرض هجائه للأعشى.. حيث قال:

أبوك قتيل الجوع قيس بن جندل وخالك عبد من خماعة راضع

وخماعة التى يشير إليها جهنام هى قبيلة أمه وكانت قليلة العدد والعدة وقصة أبيه أنه دخل غارًا يستظل به من الحر، فوقعت صخرة كبيرة من الجبل فسدت باب الغار، فمات جوعا.

وقد قيل أيضا إنه سمى بصنّاجة العرب لأنه أول من أشار إلى الطريقة الحسنة فى الغناء لبعض الأبيات عندما تتغنى بها المغنية فى ألحانه.. حيث قال:

ومستجيب لصوت الصنّج تسمعه إذا تُرجّع فيه القينة الفضل

وقيل أيضا إنه أول من انتجع بالشعر.. أى عاش على ما كان يتلقاه من أموال بسبب مدحه للملوك والأمراء وشيوخ القبائل.. مثل قوله مادحا قيس بن معد يكرب أحد زعماء القبائل العربية الكبرى فى الجاهلية:

فجئتك مرتاد ما خبروا ولولا الذى خبروا لم ترن
فلا تحرمنى نداك الجزيل فإنى امرؤ قبلكم لم أهن

كذلك مدحه لهوذة بن على سيد بنى حنيفه:

إلى هوذة الوهاب أهديت مدحتى
أرجى نوالا فاضلا من عطائكا
سمعت برحب الباع والجود والندى
فأدليت دلوى فاستقت برشائكا

ولم يكن الأعشى يخجل من ذلك.. بل كان يردده فى شعره.. من أنه طاف البلاد كلها لجمع المال ليتعيش منه ويغدق به على أصحابه وخاصة فى مجالس الأنس وشرب الخمر:

وقد طفت للمال آفاقه عُمان فحمص فأورشلم
أتيت النجاشى فى أرضه وأرض النبيط وأرض العجم

فنجـران، فالسـرو من حمير فأى مـــرام لـــه لـــم أرم

هكذا كان الأعشـى.. شـاعرا جيدا فى كل فـن.. الهجاء، الفخر، الحكمـة، الغـزل، فهاهوذا يوبخ أحد فرسـان بنى شـيبان الذى أراد محاربة قومه (بنى قيس) أخذا لثأر لديه عندهم.. بل يحذره من ذلك:

أبلـغ يزيـد بنى شيبان مألكه أبا ثبيت أما تنفـك تأتكـل
كناطح الصخر يومًا لا ليوهنها فلم يضرهـا وأوهى قرنه الوعل

كذلـك فخره بقبيلتـه.. ويذكر أعداءه بيوم معركـة «العين» والتى دارت بمنطقـة «فطيمة» بالبحرين حاليا.. حيث قاتلـت قبيلته على خيلها.. كما تعاقل رجالها بالسيوف.. وجها لوجه:

نحن الفوارس يوم العين ضاحية جنبـى فطيمـة لا ميـل ولا عـزل
قالـوا الركـوب فقلنـا تلك عادتنا أو تنزلـون فإنـا معشـر نـزل

أما عـن الغزل.. فقد تغنـى المغنون والمغنيات بأشـعاره خاصة فى قصيدته اللاميـة والتى وصفها البعض بالمعلقـة الثامنة.. حيث يبدؤها بمخاطبة محبوبته «هريرة» ويودعها بعد أن قررت الرحيل، ثم يصفها.. فيجيد الوصف حيث قال:

ودع هـريـرة إن الـركـب مـرتحـــل
وهـــل تطيـــق وداعـــا أيهـا الرجل؟
غـــراء فـرعـاء مصقـول عـوارضهـــا
تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحل

كـأن مشيتهـا مـن بيـت جارتهـا
مـر السحـاب لا ريـث ولا عجـل
ليسـت كمـن يكـره الجيران طلعتها
ولا تـراهـا لسـر الجـار تختتـل

وللأعشـى أبيات من الحكمة.. عبارة عن تأملات يصف فيها الموت الذى يطوى الملوك والحصون والأمم والشعوب..:

أرقـت وما هـذا السهـاد المؤرق وما بـى مـن سقم وما بى معشق
ولكـن أرانـى لا أزال بحـادث أغادى بما لم يمس عندى وأطرق
فما أنـت إن دامت عليك بخالد كمـا لـم يخلـد ساسـه ومورق
وكسـرى وشاهنشاه قد سار ملكه له ما اشتهـى راح عتيـق وزنبق

وأطـرف ما يـروى فى قصة الأعشـى (ميمون بن قيـس) أنه أدرك الإسـلام وأتى سـيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم يريد إعلان إسلامه، فلقيه أبو سـفيان فاسـتوقفه وعلم غرضه فحذره: إن محمدا يحرّم عليك الخمر والزنا والقمار، فأجابه الأعشى: فأما الزنا فقد تركنى وما تركته، وأمـا الخمر فقد قضيـت منه وطرا، وأما القمار فلعلى أصيب منه خلفا، ثم أخذه أبو سـفيان إلى بيته وجمع له سـادة قريـش وقال لهم هذا هو الأعشـى وتعلمون شـعره، ولئن وصل إلى محمـد ليضربن عليكم العرب قاطبة بشعره، فجمعوا له مائة ناقة حمراء فأخذها ورجع، فلما كان فى منطقة اليمامة أوقعه بعيره عن ظهره.. فمات!

عمرو بن كلثوم.. قاتـل ابن هنـد

هذا الشاعر من سادة العرب فى الجاهلية، وأعلاهم نسبا.. فقد كان أبوه كلثوم زعيم قبيلة تغلب الشهيرة، وأمه ليلى بنت الزير سالم وعمها الملك كليب، ولذلك كان من أعز الناس نفسا وأكثر العرب ترفعا.. ويقال إنه ساد قومه وهو فى الخامسة عشرة من عمره، وهو قاتل الملك عمرو بن هند بن المنذر أحد ملوك الحيرة بالعراق.. وكان سبب ذلك أن أم عمرو بن هند ادعت يوما أنها أشرف نساء العرب فهى بنت ملوك الحيرة وزوجة ملك وأم ملك، فقالت إحدى جليساتها: ليلى بنت المهلهل أشرف منك.. فعمها الملك كليب وأبوها الزير سالم (المهلهل) وزوجها كلثوم بن مالك أفرس العرب وولدها عمرو بن كلثوم سيد قومه، فأجابتها: لأجعلنها خادمة لى، ثم طلبت من ابنها الملك عمرو أن يدعو عمرو ابن كلثوم وأمه لزيارتهم، فكان ذلك..

وأثناء الضيافة حاولت أم الملك أن تنفذ نذرها فأشارت إلى «جفنة» على الطاولة وقالت: يا ليلى ناوليني تلك الجفنة، فأجابتها: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، ولكنها ألحت عليها.. ثم أمرتها بذلك.. فصرخت ليلى: واذلاه.. يا لتغلب! فسمعها ابنها عمرو بن كلثوم وكان جالسا فى حجرة مجاورة مع الملك.. فقام إلى سيف معلق وقتله به ثم أمر رجاله بالخارج بنهب كل ما فى القصر.

وقيل إنه من شعراء الطبقة الأولى فى الجاهلية مع أن شعره قليل لا يخرج عن مجموعة من الأبيات المتفرقة تدور حول الفخر والحماسة..

وهـو موضوع معلقته الشـهيرة والتى قيل إنهـا كانت من ألف بيت ولم يحفظ الرواة سوى عدد قليل منها.

ومن أشـعاره قصيدة قصـيرة بعنوان «ألا من مبلـغ» ينذر فيها ملك الحيرة عمرو بن هند.. ويفخر بقومه ويذكره بتحالفهما القديم:

ألا من مبلغ عمرو بن هنـد فما رعيت زمامة من رعيتا
أتغضب مالكا بذنوب تيم لقد جئت المحارم واعتديتا
فلولا نعمة لأبيـك فينـا لقـد قضت قناتك أو ثويتا
وكنا طوع كفك يا ابن هند بنا ترمى محارم من رميتا
ستعلم حين تختلف العوالى من الحامون ثغرك إن هويتا

وهذه قصيدة أخرى يفخر فيها بنفسه وبصحبته ويتغزل بفتاة عربية من قبيلة معد (هالة)، ويشـير إلى بنى جشـم من قبيلة بكر أن يستعدوا للقتال:

أأجمع صحبتى سحر ارتحالا ولم أشعر ببين منك هالا
ولم أر مثـل هالـة فى معد تشبه حسنهـا إلاّ الهـلالا
ألا أبلـغ بنـى جشم بن بكر وتغلـب كلهـا نبـأ جلالا
بأن الماجـد البطـل ابن عمرو غداة نطـاع قد صدق القتـالا

ونلاحظ أن معلقته الشـهيرة تعد صورة لحياة العرب فى ذلك العصر من حيث العادات والتقاليد.. وكذلك الحماسة والفخر.. وقد كتب الجزء الأول منها قبل مقتل ملك الحيرة عمرو بن هند، ثم أضاف إليها شاعرنا جزءا آخر عن شـجاعته وقتله للملك الـذى حاولت أمه إهانة قومه فى

شخص أمه ليلى بنت المهلهل:

والمعلقة تبدأ بمناداة الساقية أن تستيقظ من نومها وتصحبهم بخمر هذه القرى الجيدة التى إذا اختلطت بنبات الحصّ والماء.. كانت أكثر حرارة، وتنسى من يشربها همومه:

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحصّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا
تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ما ذاقها حتى يلينا

ويستمر فى وصف الخمر وأخبار البلاد حتى يصل إلى مخاطبة الملك عمرو بن هند.. مفاخرا بقومه وشجاعتهم وبسالتهم فى الحروب:

أبا هند فلا تعجل علينا وانظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا
متى ننقل إلى قوم رحانا يكونوا فى اللقاء لها طحينا

ويستمر فى ذلك الفخر حتى يصل إلى عتاب الملك.. فكيف يسمع للوشاة فيهم وكيف تحتقرنا أمك وتعاملنا كالخدم ونحن الذين استعصينا على من قبلك:

بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا
بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويدا متى كنا لأمك مقتوينا
فإن قناتنا يا عمر أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا

وينهـى شـاعرنا معلقته بفخـر لم أقرأ مثله من قبل.. فهم السـادة والقادة.. وغيرهم أتباع لهم، وهم لا يقبلون الذل من أحد حتى ولو كان ملـكا، وقد ضاق البر عن خيولهم والبحر عن سـفنهم، وإذا بلغ الصبى فيهم وقت الفطام سجدت له الجبابرة:

ونشـرب أن وردنا المـاء صفـوا ... ويشـرب غيرنا كـدرا وطينـا
إذا مـا الملك سام الناس خسفا ... أبينـــا أن نقـــر الذل فينـا
ملأنا البـــر حتـــى ضاق عنا ... وماء البحـــر نملـــؤه سفينـــا
إذا بلـــغ الفطـــام لنا صبـى ... تخـــرّ لـــه الجبابـــر ساجدينا

□□□

كعب بن زهير.. صاحب بردة الرسول

هـو كعب بن زهير، شـاعر جاهلى مجيد من نـجد، أبوه الشـاعر المعروف زهير بن أبى سـلمى، وأخوه بجير وابنه عقبة وحفيده العوام.. وكلهم شعراء.

كان كعب يهوى الشـعر ويتكلم به، ولكـن أباه كان ينهاه عن ذلك مخافة أن يقول شـعرا غير مسـتحكم، فيروى له مالا خير فيه، ولكنه لم يكـن يرتدع، مما اضطر أباه لضربه.. ثم حبسـه وبعد عدة أيام أطلق سراحه وكلفه برعاية الغنم..

ثم سمعه يرتجز.. ويقول:

وإنى لتعدينـى على الهـم جسرة تخـب بوصـال صـروم وتعنـقُ

فضربه أبوه وقال: أجز يالكع، فقال كعب:

منيـر هـداه ليلـه كنهـاره جميـع إذا يعلو الحزونة أفرق

وكان زهير يتعسـف فى وصف النعـام والإبل حتى يعلم مدى تمكن ابنه من الشعر، وبعدها أذن له بقوله..

ثم تصادف أن قال زهير بيتا ونصفًا من الشعر وعجز عن استكماله، فمر به النابغة، فقال له: أبا أمامة.. أجز، فقال: وما قلت: فأنشده:

تزيـد الأرض إما مـت خفـا وتحيـا إن حييـت بهـا ثقيلا

نزلـت بمستقـر العـرض منها .....

ولكن النابغة أيضا عجز عن استكمال شطر البيت، حتى جاء كعب وكان مازال غلاما فأخبره أبوه بالموضوع.. فأنشد على الفور:

..... وتمنع جانبيها أن يزولا

فضمه زهير إليه، وقال: أشهد أنك ابنى! وبعد وفاة زهير، ذهب الشاعر المعروف «الحطيئة» الملقب بالجرول وكان راوية لشعر زهير وأبنائه إلى كعب وقال له: تعلم روايتى لكم وانقطاعى إليكم، وقد ذهب الفحول غيرى وغيرك، فماذا لو قلت شعرا تذكر فيه نفسك وتضعنى موضعًا بعدك، فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع، فقال كعب:

فمن للقوافى شأنها من يحوكها ... إذا ما ثوى كعب فوَّز جرول
يقول فلا تعبأ بشىء يقوله ... ومن قائليها من يسىء ويعمل
كفيتك لا تلقى من الناس واحدا ... تنخل منها مثل ما يتنخل
يثقفها حتى تلين متونها ... فيقصر عنها كل ما يتمثل

وعندما دعا الرسول الكريم إلى الإسلام، كان كعبا قد بلغ من الشعر والشهرة حظا وافرا، وعندما أسلم أخوه بجير وبخه وطلب منه الرجوع عن دين لم يكن عليه أحد من آبائه.. ولم يكتف بذلك.. ولكنه هجاه ثم هجا النبى أيضا:

ألا أبلغا عنى بجيرا رسالة ... فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا؟
فبيّن لنا إن كنت لست بفاعل ... على غير شىء غير ذلك دلكا
على خلق لم ألف يوما أبا له ... عليه وما تلفى عليه أبا لكا
سقاك أبو بكر بكأس روية ... فانهلك المأمون منها وعلكا

وعندما تسلم بجير خطاب أخيه اطلع رسول الله عليه، فلما سمع قوله (سقاك بها المأمون) قال: صدق وإنه لكذوب، أنا المأمون، ثم رد بجير عليها بقوله:

فمن مبلغ كعبا فهل لك فى التى ... تلوم عليها باطلا وهى أحزمُ
إلى الله لا العُزّى ولا اللات وحده ... فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
فدين زهير هو لا شىء دينه ... ودين أبى سُلمى علىّ محرم

وبعد فتح مكة كتب بجير لشقيقه كعب يخبره بأن رسول الله قد أهدر دمه، ونصحه بالتوبة وأن يسرع بالقدوم إلى النبى فى المدينة ولكن كعبًا خشى من العقاب، وذهب إلى أبى بكر يستنجد به، فأخذه الصديق إلى النبى وهو فى المسجد وطلب له الأمان، وأنشده قصيدته المشهورة والتى مطلعها.

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

والتى يقول فيها:

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة ... القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت فى الأقاويل
إن الرسول لنور يستضاء به ... وصارم من سيوف الله مسلول

فاستحسن الرسول قوله وعفا عنه، ثم خلع عليه بردته، والتى احتفظ بها أبناؤه حتى اشتراها منهم الخليفة الأموى معاوية بن أبى

سـفيان بعشـرين ألف درهم، ثم توارثها الخلفـاء الأمويون، ثم بيعت للخليفة العباسـى أبى جعفر المنصور بأربعين ألفا، ثم آلت بعد الخلافة العباسية إلى العثمانيين!

المهم أن شـاعرنا حَسـن إسـلامه وأخذ يقول شـعره متضمنا حكما ومواعظ: ومما قاله:

لـو كنت أعجب من شيء لأعجبنى
سعى الفتـى وهـو مخبوء له القـدر
يسعى الفتى لأمور ليـس يدركهـا
والنفـس واحـدة والهـم منتشـر
والمـرء مـا عـاش ممـدود له أمل
لا تنتهى العين حتى ينتهى الأثر

ومن أشـعاره أيضـا تلك الأبيات التـى تدل على الزهـد فى الدنيا والإيمان بقضاء الله وقدره..

وإن يدركـك مـوت أو مشيـب فقبلك مـات أقـوام وشابـوا
تلبثنـا وفرطنـا رجـالا دعـوا وإذا الأنـام دعوا أجابوا

كما له مجموعة أبيات يفخر فيها بنفسـه وأبيه وقومه.. وهى عادة عربية لم تنقطع!

فـإن تسـأل الأقـوام عنـى فإننـى
أنا ابن أبى سلمى على رغم من رغم

أنا ابن الـذى قد عاش تسعين حجة
فلم يخـز يـومـا فـى معد ولم يلم
وأكـرمـه الأكفـاء فـى كـل معشر
كـرام فـإن كذبتنـى فاسـأل الأمـم
أنـا ابن الـذى لم يخزنى فى حياته
ولـم أخـزه حتـى تغيَّـب فى الرجم

□□□

طرفة بن العبد.. الغلام القتيل

هـو عمرو بن العبد الملقب بـ «طرفة»، مات صغيرا عن عمر يناهز الـ ٢٦ عامًا، ولذلك لقب باسـم «الغلام القتيل»، وكان ينتمى لأسرة عرفت بكثرة شـعرائها من جهة الأب والأم، فعماه المرقشـان، وخاله جريـر بـن عبـد المسيح الشهيـر بـ «المتلمس»، وكان فى صباه معجبا بنفسه يتمخطـر فى مشـيته، مات أبـوه وهو صغير فانصـرف إلى حياة اللهو وشرب الخمر.. وكان هجاء جريئا.

ولما رفض أعمامه أن يعطوه نصيبه من الميراث.. راح يرعى إبل أخيه «معبد» إلا أنها سرقت منه، فذهب لابن عمه يستغيث به فنهره وطرده واشـتد عليه، فتوجه إلى الحيرة حيـث ملكها عمرو بن هند وكان عنده خاله المتلمس.

وبعـد فترة غضب عليه الملك وأمر بقتلـه وهنا تعددت الروايات فى أسباب القتل، فمنهم من قال إن الملك لم تعجبه مشيته وإعجابه بنفسه فحقـد عليه وقرر قتله، ومنهم من قال إنه كان يشـرب الخمر مع الملك وظهرت أخته فرأى خيالها فى الكأس الذى فى يده فقال:

ألا يا ثانى الظبى الذى يبرق شنفاه
ولولا الملك القاعد قـد ألثمنـى فـاه

أما الرواية الثالثة فتقول إنه هجا الملك بعدة أبيات.. منها:

لعمرك إن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كثير
قسمت الدهر في زمن رخيٍّ كذاك الحكم يقصد أو يجور

المهم أن الملك قرر قتله لأى من الأسباب السابقة، ولكن بعض جلسائه حذروه من ذلك.. حتى لا يهجوه المتلمس (خال طرفة)، بعدها كتب الملك لكل من طرفة والمتلمس كتابا إلى المعلى عامله على البحرين بأن يقتلهما وأعطاهما هدية من عنده، فلما غادرا الحيرة التقيا غلاما فى الطريق فأعطاه المتلمس كتابه ليقرأه، فإذا به: (باسمك اللهم.. من عمرو بن هند إلى المعلى.. إذا أتاك كتابى هذا من المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيا)، فألقى المتلمس بالرسالة فى النهر.. وأنشد:

وألقيتها بالثنى من جنب كافر كذلك ألقى كل رأى مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيتها يجول بها التيار فى كل جدول

ثم طلب من طرفة أن يفعل مثله.. ولكنه رفض فتركه وهرب إلى الشام، وسار طرفة وحده حتى وصل إلى البحرين وأعطى عاملها الرسالة، وعندما علم بما فيها أوعز إليه بالهرب لما كان بينه وبين الشاعر من نسب، فرفض أيضًا، فحبسه وكتب إلى عمرو بن هند قائلًا: (ابعث إلى عملك من تريد فإنى غير قاتله)، فبعث الملك رجلا من قبيلة تغلب، وأتى بطرفة إليه فقال له: (إنى قاتلك لا محالة.. فاختر لنفسك ميتة تهواها). فقال: (إن كان ولابد فاسقنى الخمر.. ثم اقطع كاحلى) ففعل وتركه حتى مات.. وعندما علم المتلمس بما حدث قال:

من مبلغ الشعراء عن أخويهم نبأ فتصدقهم بذلك الأنفس

أودى الذى علق الصحيفة منهما ونجا حـذار حيـاته المتلمـس

هذا هو شاعرنا الذى مات صغيرا، ولكنه ترك ديوانا من ٦٥٧ بيتًا، ومعلقة عدت من أفضل الشـعر العربى بما حوته من غزل ووصف وفخر وحكمة.

وتبـدأ معلقته – كعادة شـعراء الجاهلية – بالوقـوف على الأطلال وذكـر الحبيبة «خولة» ووصفها، حيث لها آثار بمنطقة تلمع بالحجارة والحصى.. وتبرق كالوشم على ظاهر اليد:

لخولـة أطـلال ببرقـة ثهمـد تلوح كباقـى الوشم فى ظاهر اليد
وقوفا بهـا صحبـى علـى مطيهـم يقولـون لا تهلـك أسـى وتجلـد
ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليـه نقـى اللـون لـم يتخـدد

ثـم يصف ناقتـه التى يذهب بها لملاقاة حبيبته، أو يسـير بها فى الصحراء بغير خوف ولا وجل:

وإنـى لأمضى الهم عند احتضاره بعـرجـاء وفـال تـروح وتغتدى
لها فخـذان أكمل النحض فيهما كأنهمـا بـاب منيـف ممـرد

أى أنها ناقة سـريعة لا تتعب من السـير، وقد اكتمل لحم فخذيها حتى سارا كأنهما باب لقصر ضخم.

وبعـد أن ينتهى من وصف ناقته فـى أبيات عديدة ينتقل إلى الفخر بنفسـه، فهو الفتى المتواجد دائمًا فى المهمات أو فى الدفاع عن القوم، وكما يسارع بحل خيمته للحاق بالقوم فى قتال الأعداء:

إذا القوم قالوا من فتى خلت إننى
عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ولست بحلال التلاع مخافة
ولكن متى يسترفد القوم أرفد

ليس ذلك فقط، ولكنك تجده فى محفل القوم أو فى الحانات، فهو يجمع بين الجد والهزل، وإذا افتخروا فإنه أوفرهم حظا من الحسب والنسب.

فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى
وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد
وإن يلتق الحى الجميع تلاقنى
إلى ذروة البيت الشريف المعمد

وأيها اللائم على ما أنا فيه.. لا تلمنى.. فلن تستطيع دفع القدر إذا جاءت منيتى:

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

ثم يتذكر ظلم أهله له.. وهو أشد قسوة من ضرب السيف، مع أنه الشاب الضراب خفيف اللحم.. سريع الحركة كرأس الحية:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند
أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد

ثم ينهى معلقته بحكمة.. بأن الأيام لا تخفى شيئًا، وستأتيك الأخبار من كل مكان.. حتى ممن لم تطلب منه ذلك:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبغ له بتاتا ولم تضرب له وقت موعد

□□□

عامر بن الطفيل.. حفيد أم الأربعة!

هذا الشـاعر الفارس يضيق المقام عن ذكر مناقبه: معاركه وانتصاراته وأشـعاره وتصرفاته مع معاصريه، إنه عامر بن الطفيل بن مالك من بنى عامـر من قيس مضر، كان جده مالك فارسـا وشـاعرا، وكذلك أعمامه الخمسة والذين اشتهر كل منهم بصفة خاصة به: أبو براء عامر ملاعب الأسنة، وطفيل الخيل والد شاعرنا، وربيع المقترين والد الشاعر المعروف وصاحب المعلقة الوليد بن ربيعة، ونزال المضيق سـلمى، ومعود الحكماء معاويـة، وجدتـه هى أم البنين والتى افتخر بها لبيـد أمام النعمان بن المنذر.. عندما قال:

نحـن بنـى أم البنيـن الأربعـة
المطعمـون الجفنـة المدعدعـة
والضاربـون الهـام تحـت الخيضعـة
يارب هيجـا هـى خيـر من دعـه

وقيل إنه قال «أربعة» وهم خمسـة إما لوزن الشعر أو لأن أباه ربيعة كان قد مات وبقى أعمامه الأربعة.

وقد ولد شاعرنا عامر بن الطفيل فى الجاهلية قبل نزول القرآن بسبعة وخمسين عاما، وكان من أبطال العرب المعدودين الذين يخشى جانبهم، فقد كان يجيد ركوب الخيل والطعن بالرمح والضرب بالسـيف وهو هنا

يصف نفسه:

لقد تعلم الحرب أنى ابنها وأنى الهمام بها المعلم
وأنى أحل على رهوة من المجد فى الشرف الأعظم
وأنى أكر إذا أحجموا بأكرم من عطفه الضيغم
وأضرب بالسيف يوم الوغى أقد به حلق المبرم

وعلى الرغم من فروسيته وشاعريته إلا أنه عرف بخصال مذمومة منها عنجهيته وجفاء طبعه وظلمه وبخله.. كما كان عقيما لا ينجب، وعندما شاخ عمه أبو براء عامر ملاعب الأسنة، أراد قومه أن يسودوه عليهم، فأبى أن يتولى الزعامة عن وراثة، فهو ليس فى حاجة لأمجاد قومه.. وإنما لديه ما يؤهله من السيادة عليهم، وهو القائل:

إنى وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المندوب فى كل موكب
فما سود تنى عامر عن قرابة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وقد قاد عامر قومه فى معركة «فيف الريح» وهو مكان قرب نجد وكانت بين قومه تحالف مع قبائل اليمن «بنى الحارثة»، وقد كان النصر فيها لبنى عامر، إلا أن مسهر بن يزيد الحارثى فاجأه من خلفه وطعنه برمحه فأصاب عينه ففقأها، فوثب عامر عن فرسه ونجا جريا على رجليه والدم يسيل من عينه.. وقد ذكرها فى شعره وكذلك فرسه «المزنوق» حيث يقول مفاخرا بقبيلته العليا «هوازن» وجده جعفر:

لقد علمت عليا هوازن أننى
أنا الفارس الحامى حقيقة جعفر
وقد علم المزنوق أنى أكرّه
على جمعهم كر المنيح المشهر
إذا أزور من وقع الرماح زجرته
وقلت له: ارجع مقبلا غير مدبر

ويستمر فى وصف المعركة وما جرى فيها إلى أن يصل إلى ذكر حادثة إصابته بالعور، وإن كان فقد عينه لم يفقد شجاعته وإقدامه:

لعمرى، وما عمرى على بهين
لقد شان حر الوجه طعنة مسهر
فبئس الفتى إن كنت أعور عاقرا
جبانا، فما عذرى لدى كل محضر
وقد علموا أنى أكر عليهم
عشية فيف الريح كر المدور

هكذا كان عامر فارسا شجاعا مشهورا بين العرب، حتى إن قيصر ملك الروم كان إذا قدم عليه أحد من العرب سأله: ما بينك وبين عامر بن الطفيل؟ فإذا ذكر صلة ما.. عظم عنده، كما ذكر أيضًا أن النعمان بن المنذر أرسله على رأس وفد من العرب إلى ملك الفرس كسرى، فتكلم عامر بين يدى الملك فأظهر غلظة وخشونة فى القول، فقال له كسرى: متى تكاهنت يا عامر؟ فأجاب: لست كاهنا ولكنى بالرمح طاعنا، فقال

كسرى: فإن أتاك من جهة عينك العوراء ما أنت صانع؟ قال: ما هيبتى فى قفاى بدون هيبتى فى وجهى!

وكذلك لم ينس التاريخ غدره بأصحاب النبى عند بئر معونة، فقد جاء عمه عامر بن مالك (ملاعب الأسنة) إلى الرسول بالمدينة وأهدى إليه هدية، فأبى النبى أن يقبلها، وقال لا أقبل هدية مشرك، فأسلم إن أردت أن أقبل هديتك، ثم عرض عليه الإسلام وأخبره بما له فيه وما أعد الله للمؤمنين وقرأ عليه القرآن، فلم يسلم ولم يرفض وقال: يا محمد إن الذى تدعو إليه حسن جميل، فلو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فيدعونهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال النبى: إنى أخشى عليهم من أهل نجد، فقال أبو البراء: أنا لهم جار، فبعث الرسول المنذر بن عمرو فى أربعين رجلا فنزلوا فى مكان يقال له «بئر معونة» فخرج عليهم عامر مع قوم من بنى سليم فقتلهم إلا واحدا أعتقه - بعد أن أسره - وعندما علم عمه بذلك غضب غضبًا شديدا واستدعاه وانقض عليه بطعنة وقعت فى فخذه فجرحته ولم تقتله.

هكذا كان عامرا شديد البأس بطاشا ظلوما.. وقد كان يردد:

لقد تعلم الخيل المغيرة أننا ... إذا ابتدر الناس الفعال أسودها

على ربد يزداد جودا إذا جرى ... وقد قلقت تحت السروج لبودها

وقد خضبت بالماء حتى كأنما ... تشبه كمت الخيل منهن سودها

وقد أدرك عامر حدا من العنجهية والاعتداد بالذات، لم يبلغه أحد من فرسان العرب قبله، فبعد أن علم بانتصارات النبى ومبايعة القبائل

له أراد أن يشاطره السلطان، فجاءه فى وفد من قومه بصحبة أربد شقيق الشاعر لبيد بن ربيعة، وقد اتفق هو وأربد على قتل النبى، ولكن أربد لم يجرؤ على ذلك، واحتج بأنه كلما هم بضرب النبى يرى عامرا حائلا بينهما، وقد ساوم عامر النبى على اعتناق الإسلام بشرط أن يكون له سكان الخيام وللنبى سكان المدينة وأن يكون له نصف ثمارها فأنكر النبى طلبه، فخرج متوعدا: لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا، ولأربط بكل نخلة فرسا، فقال النبى: اللهم اكفنى عامرا، واهدى بنى عامر.

وفيما كان عامر عائدا إلى نجد ومعه أربد، سقطت صاعقة على أربد فقتلته، وأصيب عامر بالطاعون فى عنقه، وكان يعالج فى بيت امرأة من قبيلة سلول.. وهى من القبائل المستضعفة، فكان يصيح ألما وغيظا: يا موت ابرز لى، أغدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية؟ وظل كذلك إلى أن هلك! أما لماذا كنى عمه مالك بملاعب الأسنة، ومعاوية بمعود الحكمة فلكل من ذلك قصة، فقد كان هناك معركة بين قيس ومنها بنى عامر وقبائل تميم سميت بيوم «سوبان» حيث فر منها أخوه طفيل الخيل والد شاعرنا، وتركه وحده بالمعركة، وهو ما وصفه الشاعر أوس بن حجر فيما بعد:

فررت وأسلمت ابن أمك عامرا يلاعب أطراف الوشيج المزعزع
يلاعب أطراف الأسنة عامر وراج له خط الكتيبة أجمع

فسمى مالك بملاعب الأسنة «الرماح»، أما عمه معاوية ابن مالك،

فقد حاول التوسط بين قبائل كعب لرأب الصدع بينها، بعدما تفرقت وصارت بينها الأحقاد.. وفى ذلك يقول معاوية فى أحد قصائده:

رأيت الصدع من كعب فأودى وكان الصدع لا يعد ارتئابا
حملت حمالة القرشى عنهم ولا ظلما أردت ولا اختلابا
أعوّد مثلها الحكماء بعدى إذا ما الحق فى الأشياع نابا

وبهذا سمى معود الحكماء..

□□□

دريد بن الصمَّة.. قتيـــل حُنين

هــو دريد بــن الصمّة بن الحارث مــن بنى غزية من بن جشــم بن هوازن، كان أبوه وأعمامه من فرســان قومهــم المعدودين، وأمه ريحانة بنت معد أخت فارس اليمن المشــهور عمرو بن معد يكرب، وقد أســرها أبــوه فى إحــدى غزواته وتزوجها بعدما علم بنســبها، آملا أن ينجب منها فرســانا وهو ما حدث بالفعل حين أنجبت له خمســة ماتوا كلهم فى غزوات لهم، وقد غزا دريد حوالى مائة غزوة، ولم يغلب ســوى فى اثنتين منها، وقد أصيب فى إحداها وقتل فى الأخرى، ولكنه صنع مع إخوتــه ووالديه وأعمامه مجدا لقومهم جعل العرب تفتخر بأن يكون من بين قتلاها أحد من بنى جشم بن بكر، وهو ما عبر عنه الشاعر عمرو بن كلثوم فى معلقته حين قال:

وأما يــوم لا نخشــى عليهــم فنمعــــن غــــارة متلببينــــا
برأس مــن بنــى جشم بن بكر ندق بهــا السهولــة والحزونا

وقد عمّر دريد طويلا حتى ســقط حاجباه على عينيه وأدرك الإسلام ولم يســلم، وخرج مع قومه فى معركة حنين، مظاهرا للمشاركين، غير مشارك فى الحرب، ولكنهم أخرجوه معهم تيمنا به وللاستماع لمشورته..

وقد خطب دريد الشــاعرة الخنســاء بعد أن أعجب بها عندما رآها تداوى ناقتها.. وقال فيها:

حيّوا «تماضر» وأربعوا صحبى وقفـوا فإن وقوفكـم حسبـى
أخناس قد هـام الفـؤاد بكـم وأصابـه تبـل مـن الحـب

ولكنهـا رفضته على الرغم من علمها بمن هو.. قائلة لأخيها معاوية وكان صديقـا له ولأبيها: يـا أبت أترانى تاركة بنـى عمى مثل عوالى الرماح، وناكحة شـيخ بنى جشـم؟.. وعندما سمـع دريد قولها هجاها فردت عليه بهجاء مماثل.

وقد أنجب دريد ولده «سـلمة» وكان شـاعرا فارسـا، وكذلك ابنته (عمرة) وكانت أيضا شاعرة.. وقد ذكرهما فى الكثير من أشعاره.

ووصف دريد بأنه كان شاعرا فحلا.. وقيل إنه كان فى بعض أشعاره أفضل من النابغة الذبيانى وخاصة فى مراثيه التى قالها فى إخوته، فقد قتل إخوته الأربعة فى معارك مختلفة، فشـقيقه خالد قتله بنو الحارث بـن كعب حين هب مدافعا عن جيرانه وحلفائـه، وقيس قتله بنو أبى بكـر بن كلاب، وعبـد يغوث قتله بنو مرة، أما عبد الله وكان شـقيقه الأكـبر فقد قتل فـى غزوة له ضد قبيلة غطفـان، وكان معه دريد وكاد يقتل فيها أيضا.

وهـا هو ذا دريد يصـف بطولات إخوته وعائلته فـى مرثية جميلة تعد من عيون الشـعر العربى، حيث يفخر دريد بنفسـه وإخوته، فهم لا يفارقون السـيف قاتلين أو مقتولين، فقد كان لحمهم طعاما للسـيوف وكذلك لحم أعدائهم وهم لا يتركون ثأرهم وقسّموا عمرهم نصفين: نصف للإغارة، ونصف للدفاع، ولا حياة لهم غير ذلك.

تقول ألا تبكى أخاك وقد أرى
مكان البكا لكن بنيت على الصبر
فقلت أعبد الله أبكى أم الذى
له الشرف الأعلى قتيل أبى بكر
وعبد يغوث تحجل الطير حوله
وعز مصابا جثو قبر على قبر
أبى القتل إلا آل صِمة أنهم
أبوا غيره والقدر يجرى إلى القدر
فإنا للحم السيف غير نكيرة
ونلحمه حينا وليس بذى نكر
يغار علينا واترين فيشتفى
بنا إن أصبنا أو نغير على وتر
بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة
فما ينقضى إلا ونحن على شطر

ولدريد عدد من الأبيات المشهورة يرددها محبو الشعر وقراؤه قالها ضمن قصيدة طويلة يسجل فيها ما حدث فى معركة «يوم اللوى» والتى كانت بين قومه وقبيلة غطفان، حيث خرج هو وأخوه عبد الله فأغارا على غطفان، فأصابا منهم إبلا كثيرة واستاقوها عائدين، وهم فى الطريق نزل عبد الله عن الركاب ليريح ويستريح ويقسّم المال بين أصحابه، فنهاه دريد ونصحه بالسرعة حتى «تنجو وننجو معك» إلا أن عبد الله

أخذته الحمية ورفض الاستماع لرأى شقيقه، فهاجمتهم غطفان وقتلت عبد الله وأصابت دريدا واستردت إبلها، وفى ذلك يقول شاعرنا:

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى
غوايتهم وأننى غير مهتدى
وما أنا إلا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد
فإن تعقب الأيام والدهر تعلموا
بنى قارب إنا غضاب بمعبد

لقد نصحهم ولكنهم لم يستمعوا له، ونظرا لأنه من قبيلة غزية فهو يسير خلفها إذا غزت أو أرشدت، كما يهدد من قتلوا شقيقه «بنى قارب» للأخذ بثأره.

ثم يصف كيف قتل شقيقه، وأنه حاول حمايته دون جدوى فقد هب إليه بفرسه الذى يصفه فى بيتين نافس فيهما امرؤ القيس عندما وصف فرسه.. حيث قال:

وغارة بين اليوم والليل فلتة
تداركتها ركضا بسيد عمرد
سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا
طويل القرا نهدأ سبل المقلد

لقد أغار على فرسه الذى شبهه بالذئب.. كما أنه سليم العظم غليظ القوام، نفر منه عرق النسا بسبب كثرة حركة قدميه.. كما أنه طويل الظهر أملس المستوى.

وتمر الأيام ويعاود دريد غزو بنى غطفان للانتقام لأخيه وأخذ ثأره.. وهنا يصف ماذا فعل بغطفان وبنى عبس وفزارة، وقتله ذؤاب بن أسماء قاتل أخيه بعد أن أسره وعاد به إلى قومه ورفض فديته.. وقتله أمام أمه ريحانة لتبرد نارها!

يا راكبا إما عرضت فبلغن أبا غالب أن قد ثأرنا بغالب
قتلنا بعبد الله خير لداته ذؤاب بن أسماء بن زبد بن قارب
وعبسا قتلناهم بحر بلادهم بمقتل عبد الله يوم الذنائب

ويستمر فى ذكر العشائر والقبائل التى هزمها وقتل فرسانها أو أسرهم إلى أن يختم بقوله: ليت القبور التى يدفن فيها قتلانا تخبر عنا، لقد أشبعنا الضباع والذئاب الجائعة بلحومهم:

فليت قبورا بالمخاضة أخبرت فتخبر عنا الخضر خضر المحارب
رد سناهم بالخيل حتى تملأت عوا فى الضباع والذئاب السواغب

وقد قتل دريد فى يوم حنين بعد أن هزم المشركون وتفرق جمعهم، وهرب الناجون منهم إلى بعض القرى ومنهم دريد الذى طارده رجل من بنى سليم وعندما لحق به سأله دريد: من أنت وماذا تريد؟ فأخبره الرجل أنه ربيعة بن رفيع السلمى.. وضربه بسيفه فلم يصبه، فقال له دريد: بئس ما سلحتك أمك، خذ سيفى هذا ثم اضرب به، وارفع عن

العظـام، واخفض عن الدماغ، كما كنـت أضرب الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريدا بن الصمّة وكان دريد قد أعتق ثلاث نساء من بنى سليم بعد أن أسرهن فى إحدى غزواته.

❑❑❑

شاعر الاستقامة.. معن بن أوس!

فيا عجبا لمن ربيت طفلا ألقمه بأطراف البنان
أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني
أعلمه الفتوة كل وقت فلما طر شاربه جفاني
وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني

هذه الأبيات كنا نرددها جميعا كمثل وحكمه على من لا يقدرون المعروف ولا يصونون العهد والذين ينقلبون على من علمهم وأكرمهم.. وبمعنى آخر يعضون الأيادى التى امتدت لهم.. وعلمتهم بعد جهل وأغنتهم بعد فقر!

المهم أننا كنا نردد تلك الأبيات فى المناسبات المختلفة ولم يكن أغلبنا يعلم أنها للشاعر المخضرم معن بن أوس المزنى والذى أدرك الإسلام واعتبر من أفضل شعراء العصر الإسلامى مع كعب بن مالك وحسان بن ثابت وغيرهما.. وقد قال شاعرنا الأبيات السابقة فى قريبه الشاعر العربى المعروف عمرو بن أبى ربيعة، وقد شهد له الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان أنه من أشعر الناس، حيث تصادف أن كان فى مجلسه جمع غفير، وطلب أن يقول كل منهم أفضل شعر سمع به، فذكر البعض أبياتا لامرؤ القيس وآخرين لكل من الأعشى وطرفة بن العبد وغيرهما، وبعد أن انتهوا قال عبدالملك: أشعرهم- والله- الذى يقول:

وذى رحم قلمت أظافر ضغنه
بحلمى عنه وهو ليس له حلم
إذ سمته وصل القرابة سامنى
قطيعتها، تلك السفاهة والإثم
ويسعى إذا أبنى لهدم صوالحى
وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم
يحاول رغمى لا يحاول غيره
وكالموت عندى أن ينال له رغم
فمازلت فى ليـن له وتعطفى
عليه كما تحنو على الولد الأم
لأستل منه الضغن حتى سللته
وقد كان ذا حقد يضيق به الجرم

وهو هنا أيضا يتحدث عن المعروف الذى لم يصادف أهله، فهذا شخص ذو قرابة «يكره» من حوله، وهو يحاول معه ويوصله وهو يقاطعه، ولم يكتف بذلك، ولكنه يحاول إرغامه على أشياء ولكن الشاعر يواصل الحنو عليه كما تحنو الأم على وليدها، حتى تمكن فى النهاية من انتزاع الكره من قلبه!!

ونظرا لأن شاعرنا ولد فى العصر الجاهلى- أى قبل الرسالة المحمدية- فقد عاصر عمليات وأد البنات، وكان هو يحسن صحبة بناته وتربيتهن، بينما لاحظ أن بعض أقاربه يظهر الجزع والكره إذا

ولدت له بنت، ولذلك قال:

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وفيهن لا تكذب نساء صوالح
وفيهن والأيام تعثر بالفتى عوائد لا يمللنه ونوائح

وهو هنا يتساءل كيف يكره الرجال بناتهم وفيهن- مستقبلا- نساء صالحات.. فهى الأم والأخت والزوجة.. بل عندما يعطى الدهر ظهره لأى فتى تجدهن من يتحمله ويرعاه!

وكثيرا ما كان يخاطب شباب قومه بالحفاظ على العادات والتقاليد القبلية الأصيلة، وألا يسيئوا بتصرفاتهم لآبائهم أو يضيعوا ما تركوه لهم.. حيث يقول:

ورثنا المجد عن آباء صدق أسأنا فى ديارهم الصنيعا
إذا الحسب الرفيع تواكلته بناة السوء أوشك أن يضيعا

ولشاعرنا قصيدة جميلة بعنوان «لعمرك ما أهويت كفى لريبة» يتحدث فيها عن استقامته وترفعه عن الصغائر والضغائن وتجنبه للفواحش وإكرامه للضيف.. حيث يقول:

لعمرك ما أهويت كفى لريبة
ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها
ولا دلنى رأى عليها ولا عقلى
وإنى حقا لم تصبنى مصيبة

من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى
ولســت بماشٍ ما حييــت لمنكــر
مـن الأمـر لا يمشى إلى مثله مثلى
ولا مؤثـرا نفسـى على ذى قرابـة
وأوثـر ضيفــى ما أقام علـى أهلى

ونختــم بقصيدته التــى يفتخر بهــا بقبيلته «مزينــة» وكيف كانوا يتعاملون مع الأصدقاء، وماذا فعلوا بالأعداء:

فيا أيهـا المـرء الذى ليـس صامتـا
ولا ناطقـا أن قال فصـلا ولا عـدلا
إذا قلـت فاعلـم مـا تقـول ولا تكـن
كحاطـب ليـل يجمع الدق والجزلا
مزينـة قومــى إن سألــت فإنهــم
لهــم عــزة لا تستطيــع لهــا نقلا
نقــول فيرضــى قولنــا ونعينــه
ونحن أناس نحسـن القيـل والفعـلا
فكــم مــن عـدو قد أباحت رماحنا
وكم من صديق نال من سيبنا سجلا

□□□

الزيـر سـالم.. الفارس المهلهل

وتلـك قصة أخـرى اختلط فيها الحق بالباطـل والحقيقة بالخيال، وتحولت إلى «سـيرة شـعبية» كما حدث مع عنترة بن شـداد وأبو زيد الهلالى من أبطال العرب فى الجاهلية، إنها قصة حرب البسوس وبطلها الشـاعر عدى بن ربيعة التغلبى والذى لقب بالمهلهل، حيث كان يلبس ثيابـا مهلهلة بعد مقتل أخيه كليب، وقيـل أيضا إنه أول من «هلهل» الشعر أى كذب فيه.. حيث قال:

ولولا الريح أسمع أهل حجر صليل البيض تقـرع بالذكـور

وهناك من قال إنه سمى بهذا اللقب بسبب قوله:

لما توغـل فـى الكراع هجينهن هلهلـت أثـأر مالكـا أو سنبلا

كمـا لقب أيضا بأبى ليلى.. وهى إحـدى بناته التى تزوجت أحد فرسـان العرب (كلثوم) والد الشاعر عمرو بن كلثوم، ولقب كذلك بالزير سالم، حيث لقبه بذلك أخوه كليب «زير النساء» أى جليسهن.

أما قصة حرب البسـوس فقد كانت بين أبناء العمومة قبيلتى تغلب وبكر أولاد وائل بن ربيعة.. وقيل إنها اسـتمرت أربعين عاما، وكانت بسـبب قيام كليب زعيم قبيلة تغلب بقتل ناقة سـيدة تدعى البسوس، وكانـت مقيمة عند ابن أختها جسـاس فارس قبيلـة بكر، والذى انتقم لخالته بقتـل كليب، وعندما علم المهلهل بقتل شـقيقه، اعتزل الخمر

والنسـاء وجمع قومه للانتقام، ولكنهم أرسـلوا وفدا إلى مرة الشـيبانى ولجسـاس فقالـوا له: إنكم قتلتـم كليبا بناب من الإبـل، ونحن نكره العجلة عليكم دون الإعـذار إليكم، ونحن نعرض عليكم أربعة خيارات لكـم فيها مخرج ولنا فيها مقنـع، الأول: أن تحيى لنا كليبا، والثانى أن تدفع إلينا جساسـا قاتله فنقتله به، الثالث: تدفع لنا بأخيك همام فإنـه كفء له، والرابع: أن تمكنا من نفسـك فـإن فيك وفاء من دمه، فقـال لهم: أما إحيائى كليبا فهذا مالا يكون، وأما جسـاس فإنه غلام طعـن طعنة على عجل، ثم ركب فرسـه لا أدرى أين ذهب، وأما همام فإنه أبو عشـرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومهم، فلن يسلموه لى لأدفعـه إليكم ليقتل بجريرة غيره، وأما أنا فما أتعجل الموت.. ولكم عندى خياران: فهؤلاء أبنائى -كانوا تسـعة بخلاف جساس-، فخذوا منهم أحدهم واذبحوه، وإلا فألف ناقة أقيم لكم بها كفيلا من بنى وائل، فغضبوا منه وقالوا: لقد أسـأت، ترزل لنا ولدك وتسـومنا اللبن من دم كليب.. وانصرفـوا عائدين إلى قومهم، هذا فى ذات الوقت التى تركت «جليلة» امرأة كليب منازلهم، وعادت إلى قومها بنى بكر وكانت حاملا، ثم بدأت الحرب بـين القبيلتين، وسميت أيام المواجهات بيوم النهى، ويـوم زبيـد، ويوم واردات، ثم عويرضات، ثـم ضرية، ثم القصيبات، وكلهـا أسمـاء لأماكن أو جبـال أو آبار ميـاه دارت الحروب حولها أو فيهـا، وكلها انتصرت فيها تغلب على بكر وقتل منهم المهلهل الكثير، ثم تدخل أحد أبناء العمومة وهو الحارث بن عبادة وأرسـل ابنه بجيرًا إلى المهلهـل ليطلب منه إنهاء الحرب، فقد قضـى على أبناء عمومته،

ولكنه قتله، فقاد الحارث بنى بكر والتقى تغلب فى معركة تحلاق اللمم أو يوم الفصيل فغلبها وأسر المهلهل.

وهى المعركة التى يصفها شاعر بنى بكر فيما بعد.. طرفة بن العبد بقوله:

سائلوا عنا الذى يعرفنا مالقوا فى يوم تحلاق اللمم
يوم تبدى البيض عن أسؤقها وتلف الخيل أعراج النعم

المهم أنه عندما عاد الوفد وأخبر المهلهل بما حدث وما قاله زعيم بكر أنشد يقول:

يا لبكر أنشروا لى كليبا يا لبكر أين أين الفرار؟
تلك شيبان تقول لبكر صرح الشر وبان السرار

أى أعيدوا إلىّ أخى كليبا! وإلا القتل الذى ليس منه فرار، كما أخبرتكم شيبان، أنها الحرب. ولا بديل عنها! ثم توعدهم بالإبادة:

قتلوا كليبا ثم قالوا: أربعوا كذبوا ورب الحل والإحرام
حتى نبيد قبيلة وقبيلة قهرا وتفلق بالسيوف الهام
ويقمن ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الأيتام

لقد أقام المهلهل لأخيه مناحه دائمة.. مستخدما شعره لإثارة قومه لأخذ ثأر أخيه:

إن فى الصدر من كليب شجونا هاجسات نَكّأن منه الجراحا
أنكرتنى خليلتى إذ رأتنى كاسف اللون لا أطيق المزاحا

كيف أسلو عـن البكـاء وقومـى قد تفانوا فكيف أرجو الفلاحا

وكانت جليلة امرأة كليب قد وضعت حملها فكان صبيا أسمته الجرو وتربى مع أخواله ولما نشـأ وعرف ما حدث لأبيه.. وأن خاله جساسًـا هـو قاتله.. هرب إلى أعمامه من بنى تغلب وهو يردد: وفرسـى وأذنيه وناصيته وعينيه، ورمحى وطرفيه وسـيفى وشفرتيه لا يدع الرجل قاتل أبيه ينظر إليه، ثم أخذ يطارد خاله جساس حتى قتله وهو يقول:

ألم ترنـى ثأرت أبـى كليبـا وقـد يرجـى المرشح للذهـول
غسلت العار عن جشم بن بكـر بجساس بن مـرة ذى البتـول

أما المهلهل فقد مرض مرضا شديدا- بعد أن أخلى سبيله من الأسر- وأرسله ابن أخيه الجرو (الهجرس) إلى مصر مع عبدين للعلاج.. فقتلاه، ولكنه أنشدهم بيتين وطلب منهما أن يبلغا ابن أخيه بهما، وعندما عاد أخبراه أن حية لسعته فمات، ثم أنشداه البيتين:

مـن مبلـغ الحييـن أن مهلهـلا أضحى قتيلا فى الفلاة مجندلا
لله دركمـــا ودر أبيكمـــا لا يبـرح العبـدان حتـى يقتلا

فتأكد الجرو أن العبدين قتلا عمه.. وهكذا كانت نهاية المهلهل الذى أباد قبيلة بكاملها انتقاما لأخيه كليب!

□□□

العباس بن مرداس

الشاعر والفارس العباس بن مرداس من بنى سليم، وأمه الشاعرة الخنساء بنت عمرو، وكان سيدا فى قومه من كلا الطرفين، وهو شاعر جاهلى أدرك الإسلام.. فأسلم بعد أن وفد على الرسول على رأس وفد كبير من قومه.

وتروى بعض الكتب قصة طريفة لإسلامه.. ملخصها أن كان لأبيه صنم يتعبد إليه اسمه «ضمار» فلما حضره الموت أوصى ابنه به، فنقله إلى أحد البيوت، وأخذ يتردد عليه بين الحين والآخر، وعندما ظهر رسول الله وجاهر بالدعوة أتاه صوت وهو نائم يقول له:

قل للقبائل من سليم كلها ... هلك الأنيس وعاش أهل المسجد
إن الذى ورث النبوة والهدى ... بعد ابن مريم من قريش مهتدى
أودى الضمار وكان يعبد مرة ... قبل الكتاب إلى النبى محمد

فصحا العباس من نومه واتجه إلى إبله فأوصى بها راعيه، وأخبره أنه ذاهب إلى محمد صلى الله عليه وسلم ثم أحرق الصنم (ضمار) واتجه إلى مكة وهو يقول:

لعمرى أنى يوم أجعل جاهدا ... ضمارا لرب العالمين مشاركا
وتركى رسول الله والأوس حوله ... أولئك أنصار له، ما أولئكا؟
فآمنت بالله الذى أنا عبده ... وخالفت من أمسى يريد المهالكا

نبيا أتانا بعد عيسى بناطق من الحق فيه الفصل منك كذلك
ووجهت وجهي نحو مكة قاصدا وتابعت بين الأخشبين المباركا

وقد لحق عباس بالرسول في المدينة المنورة، حيث أراد المسير إلى مكة عام الفتح، فواعده الرسول أن يلقاه وقومه في منطقة تسمى «قديد» حيث لقاه فيما بعد ومعه ألف من بني سليم، وفي ذلك يقول شاعرنا:

عشية واعدنا قديدا محمدا يؤم بنا أمرا من الله محكما
حلفت يمينا برة لمحمد فأوفيته ألفا من الخيل معلما

وقد ترك العباس العديد من القصائد في حب الرسول صلى الله عليه وسلم ودور قومه بني سليم في نصرة الإسلام.. منها تلك القصيدة التي يقول فيها:

يا خاتم الأنبياء إنك مرسل بالحق كل هدى السبيل هداكا
إن الإله بنى عليك محبة في خلقه ومحمدًا أسماكا

وفي قصيدة أخرى جميلة يبدأها بمناشدة «يا أيها الرجل الذي تهوى به».. إذا أتيت النبي.. فحقا عليك أن تقول له:

يا خير من ركب المطي ومن مشى فوق التراب إذا تعد الأنفس
بك أسلم الطاغوت واتبع الهدى وبك انجلى عنا الظلام الحندس

وفي قصيدة أخرى أيضا بعنوان «من مبلغ الأقوام أن محمدا» يشير فيها إلى دعاء الرسول لربه واستنثاره وحده.. فأوفى الله له وأنعم عليه بالكثير، ومنها انتصاره على أعدائه يوم حنين، وفي هذا يشير عباس

إلى مشاركة بنى سليم فى النصر:

فإن سراة الحى إن كنت سائلا سليم وفيهم منهم قد تسلّما
وجند من الأنصار لا يخذلونه أطاعوا فما يعصونه ما تكلما
سمونا لهم ورد القطازفة ضحى وكل نراه عن أخيه قد أحجما
لدن غدوة حتى تركنا عشية حنينا وقد سالت مدامعه دما

ولكن مشكلة شاعرنا أن إسلامه وتدينه كان ضعيفا نسبيا، وهو ما ظهر بعد غزوة حنين فى ردة فعله على ما قام به الرسول من توزيع الغنائم على بعض «المؤلفة قلوبهم» من الذين دخلوا الإسلام حديثا ومنهم صديقاه الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، فأكثر لهم وأقل لغيرهم ومنهم شاعرنا ابن مرداس.. حيث قال:

وكانت نهابا تلافيتها بكرى على المهر فى الأجرع
وإيقاظى الحى أن يرقدوا إذا هجع القوم لم أهجع
فأصبح نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون أمرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فبلغ قوله رسول الله، فدعاه ولامه على ما يقول وتدخل أبو بكر يخفف من وقع ما وصل النبى من شعر عباس، فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه، وأمر بأن يعطى من الإبل والشاة ما يرضيه ليمسك!

ومع ذلك يظل شاعرنا فارسا مدافعا عن الإسلام، وقد شارك فى

الكثير من الحروب والفتوحات الإسلامية حتى قتل مع أشقائه الثلاثة فى معركة القادسية، كما يظل عباس شاعرا مجيدا يستشهد بشعره فى المناسبات المختلفة، ومنها الأبيات التى استشهد بها كل من الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، وعبد الله بن الزبير فى مخاطبتهما لبعضهما، حيث قال عبد الملك إلى عبد الله يتوعده:

إنى لعند الحرب تحمل شكتى إلى الروع جرداء السيالة ضامر

فيرد عليه الأخير بأبيات من شعر عباس أيضا:

إذا فرس العوال لم يخالج همومى غير نصر واقتراب
وأنا والسوابح يوم جمع وما يتلو الرسول من الكتاب
هزمنا الجمع جمع بنى قسى وحكّت بركها ببنى رئاب

وله قصائد أخرى يعلن فيها أنه كره الحرب وندم على ما مضى من عمره قبل الإسلام.. هذا مع أنه.. وكما يقول:

وكانت سليم إذا قدمت فتى للحوادث كنت الفتى
وكنت أفىء عليها النهاب وأنكى عداها وأحمى الحمى

أو تلك التى يعاتب فيها قومه على عتابهم له.. ويناشدهم التخفيف مما تضيق به صدورهم ضده أو تحكيه ألسنتهم عنه:

أرانى كلما قاربت قومى نأوا عنى وقطعهم شديد
متى أبعد فشرهم قريب وأن أقرب فودهم بعيد
سئمت عتابهم فصفحت عنهم وقلت لعل حلمهم يعود

كمـا لـه مجموعة من الأبيات.. تمثل حكمـة بالغة وهى ألا تنخدع بالمظهر حيث يقول:

ترى الرجـل النحيف فتزدريه وفـى أثوابـه أسـد مزيـر
ويعجبـك الطريـر فتلتقيـه فيخلـف ظنـك الرجـل الطرير
فما عظم الرجال لهـم بفخـر ولكـن فخرهـم كـرم وخيـر

فالشجاعة ليست بالنحافة أو السمانة فضاعف الطير أطولها جسوما وضعاف الأسد أكثرها زئيرا..

□□□

النابغة الجعدى.. الشاعر التقى

وهذا شاعر آخر سكت عن الشعر ثلاثين عاما، ثم تفجر على لسانه ونبغ فيه مع قدوم الإسلام، فسمى أيضا بالنابغة، إنه عبد الله بن قيس الجعدى، الملقب بـ «أبو ليلى» وكان شاعرا يمنيا ملتزما فى الجاهلية.. حيث هجر عبادة الأصنام وكان يصوم، وعندما أسلم تميزت قصائده بالروح الإسلامية القوية، فتضمنت البعث والتوحيد والجنة والنار.

وقد شهد عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الأربعة، وكان موضع احترامهم وتقديرهم، كما شهد فتح فارس محاربا، وانحاز إلى على بن أبى طالب فى غزوة «صفين»، وعندما تولى معاوية الخلافة أمر عامله على المدينة مروان بن الحكم بأخذ أمواله، إلا أن النابغة هدد بهجاء بنى أمية فرد له ما أخذ منه، ويقال إنه عاش طويلا ومات فى أصفهان إحدى المدن الإيرانية (حاليا).

ويروى أنه وفد على النبى مع قومه وأنشد قصيدته التى يقول فيها:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتابا كالمجرة نيّرا
بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فسأله النبى صلى الله عليه وسلم: أين المظهر يا أبا ليلى؟.. فأجاب: «الجنة» يا رسول الله، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أجل إن شاء الله، ثم أكمل:

ولا خيـر فى حلم إذا لم يكن له بـوادر تحمـى صفـوه أن يكـدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمـر أصـدرا

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: لا فض الله فاك..

واسـتقر النابغة الجعدى فى المدينة ولم يرجع مع قومه إلى منازلهم وعندمـا بدأت الفتوح الإسـلامية خرج مجاهدا مـع الجيوش العربية، وأخذ يضيـف إلى القصيدة التى خاطب بها النبـى أبياتا جديدة تصور جهاده وتقواه.. حيث قال:

وجاهـدت حتـى ما أحس ومن معى
سهيـلًا إذا مـا لاح ثمـت غـوّرا
أقيم علـى التقـوى وأرضـى بفعلهـا
وكنـت مـن النار المخوفـة أوجـرا

وعندما حدث الخلاف بين «على ومعاوية» انحاز للأول وحضر معه وقعة «صفين» مقاتلا، ثم أنشد أشعارا يمدح فيها عليا ويهجو معاوية.. ومنها:

قـد علـم المصـران والعـراق أن عليـا فحلهـا العتـاق
إن الألـى جاروك لا أفاقوا لهم سيـاق ولكـم سيـاق
قـد علمـت ذلكـم الرفـاق سقتم إلى نهج الهدى وساقوا
إلى التـى ليـس لهـا عـراق فـى ملـة عادتهـا النفـاق

فقد خاطب أهـل المصريين (الكوفة والبصرة) بـأن عليا هو الخليفة الكريم وقد جاورتموه وتعلمون نهجه، بينما غيركم سيقوا إلى ملة عادتها

النفاق ولا يعلم أحد غاياتها، ويقصد بهم أنصار معاوية!

وقد تكرر الأمر مرة أخرى.. فعندما دعا عبد الله بن الزبير لنفسه فى أواخر خلافة يزيد بن معاوية، قدم عليه الجعدى فى مكة ومدحه بقصيدة رائعة يقول فيها:

حكيت لنا الصدّيق لما وليتنا
وعثمان والفاروق فارتاح معدم
وسويت بين الناس فى العدل ما اسْتَوَوا
فعاد صباحا حالك الليل مظلم

ومع انحيازاته السياسية المتكررة والتى كانت تؤدى به كل مرة إلى التهلكة، إلا أنه كان شاعرا تقيا متأثرا بالقرآن وهو ما عكسته أشعاره.. ومنها قصيدته الشهيرة التى يصور فيها كيفية الخلق من النطفة حتى تمام الخلق الكريم:

الحمد لله لا شريك له
من لم يقلها فنفسه ظلما
المولج الليل فى النهار وفى الليل
نهارا يفرج الظلما
الخافض الرافع السماء على الأرض
ولم يبن تحتها دعما
الخالق البارئ المصور فى الأرحام
ماء حتى يصير دما

مـن نطفـة قدرهـا مقدرهـا
يخلـق منهـا الأبشـار والنسمـا
ثم عظـامـا أقامهـا عصب
ثمت لحمـا كسـاه فالتأمـا
ثـم كسـا الرأس والعواتـق أبشارا
وجلـدا تخـالـه أدمـا
والصوت واللون والمعايش والأخلاق
شـتـى وفـرق الكلمـا
ثمت لابـد أن سيجمعكـم
والله، جهـرا، شهـادة قسمـا
فأتمـروا الآن مـا بدا لكـم
واعتصمـوا إن وجدتـم عصمـا
فـى هـذه الأرض والسـماء ولا
عصمـة منـه إلا لمـن رحما

كما أن له أبياتا أخرى جميلة تنبع بالحكمة والموعظة الحسنة:

المـرء يرغـب فـى الحيـاة وطـول عيـش قـد يضـره
تغنـى بشـاشته ويبقى بعد حلـو العيـش مـرة
وتسـوءه الأيـام حتـى مـا يـرى شـيئـا يسـره
كـم نامـت بـى إن هلكت وقـائـل لله دره

الجرول الحطيئة.. الشاعر الشتّام!

هــو أبو بكر مليكة جرول بن أوس العبســى، لقــب بالحطيئة لقربه من الأرض، فضلا عن ضعف جســمه ودمامة وجهه، ولد لجارية تسمى الضراء كانت عند أوس ابن مالك العبسى، ونشأ فى قبيلة عبس مغمورا مذلــولا بســبب عدم صحة نســبه، وهو ما جعله يعيــش وحيدا منفردا بأحزانه، منبوذا من القبائل الأخرى، فاتخذ الشــعر ســلاحا يهتك به أعراض الناس ويبتزهم ويدفع عدوان الآخرين عليه.

ومع ذلك فقد كان شاعرا قوى العبارة بديع البناء غزير المعانى تتلمذ على يد الشاعر الكبير زهير ابن أبى سلمى، وروى له ولأبنائه من بعده، ولكنه اشتهر بالهجاء حتى إنه لم يسلم أحد من لسانه، وعندما لا يجد من يهجوه كان يهجو نفسه، فقد شاهد وجهه فى بئر ماء.. فقال:

أبــت شفتــاى اليــوم ألا تكلمــا بشر فمــا أدرى لمــن أنــا قائلــه
أرى لى وجهــا شــوه الله خلقــه فقبــح مــن وجــه وقبــح حامله

كذلك لم تســلم أمه أو الســيدة التى قامت على تربيته من هجائه، فقد قال فيها:

جزاك الله شــرا مــن عجــوز ولقــاك العقــوق من البنينــا
أغــربالا إذا استودعت ســرا وكــانونا علــى المتحدثينــا؟
تنحــى فــاجلسى منى بعيــدا أراح الله منــــك العــــالمينا

وقـد ولد الحطيئة فى الجاهلية، ولكنه عاش طويلا وأدرك الإسـلام فأسلم ثم ارتد وأعان المرتدين بشعره:

أطعنـا رسول الله إذ كان بيننا فيا لعبـاد الله مـا لأبـى بكر
أيورثها بكـرا إذا مات بعـده فتلك وبيـت الله قاصمة الظهر

وفى عهد عمر بـن الخطاب هجا الحطيئة الزبرقان بن بدر التميمى وكان سـيد قومه يجمع منهم الصدقات يوزعها على فقراء المسلمين، ولم يصل للحطيئة شىء من العطايا فقال فيه:

دع المكـارم لا ترحـل لبغيتهـا
واقعـد فإنـك أنت الطاعم الكاسى
مـن يفعـل الخيـر لا يعـدم جوازيه
لا يذهب العـرف بين الله والناس

أى أنت المطعوم المكسـو، فلا تدعى الكرم بتوزيعك صدقات قومك، فاشـتكاه الزبرقان إلى الخليفة عمر فحبسـه، فأخذ الحطيئة يسـتعطفه بأبياته المشهورة:

ماذا لك تقـول لأفـراخ بذى مـرخ
زغب الحـواصل لا مـاء ولا شجـر
ألقيت كاسبهـم فـى قعـر مُظلمـة
فاغفـر عليـك سـلام الله يا عمر
لم يؤثروك بهـا إذ قدمـوك لهـا
لكن لأنفسهـم كانـت بك الأثـر

فامنن علـى صبيـة بالرمل مسكنهم
بين الأباطح يغشاهـم بهـا القـدر

فعفـا عنه عمر بعـد أن أخذ عليه عهدا ألا يهجـو أحدا ويقال إنه اشـترى منه أعراض المسـلمين بثلاثة آلاف درهم! ومـع ذلك فقد عاد للسـباب والهجاء بعد استشـهاد عمر، فقد سأل أمه عن أبيه، فلم تكن صريحة معه وخلطت عليه الكلام، فقال:

تقـول لك الضـراء لست لواحـد
ولا اثنين، فانظر كيف شرك أولئكا
وأنت امرؤ تبغـى أبا قـد ضللتـه
هبلت ألـما تستفق مـن ضـلالكـا

وكما كان الحطيئة هجاءً شـتاما.. كان أيضـا بخيلا، فقد روى أنه كان يجلس فى فناء بيته، فوفد عليه رجل غريب، فلم يحسن الحطيئة استقباله، ولكن الرجل غلبه التعب ونام بجوار المنزل فقال الحطيئة:

وسـلم مرتيـن فقلـت مهـلا كفتـك المـرة الأولى السـلاما
ونقنق بطنـه ودعـا رؤاسًـا لما قد نال مـن شبـع ونامـا

ومع ذلك فقد كان الحطيئة شاعرا مجيدا.. قوى العبارة غزير المعانى وها هو ذا يمدح إحدى القبائل التى أكرمته وأجزلت له العطاء:

يسوسـون أحلامـا بعيـد أناتهـا وإن غضبوا جاء الحفيظـة والجُـد
أولئك قوم إن بنـوا أحسنـوا البُنـا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وعندما تقدم به العمر.. كان ينطق شعرا يتصف بالحكمة، ومما قاله فى ذلك:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد

ولعل أطرف ما قيل عن هذا الشاعر الهجاء، أنه عندما شعر بقرب أجله أوصى أن يعلق على كفنه:

لا أحد ألأم من حطيئة هجا البنين وهجا المريئة

فقال له من كانوا حوله: يا أبا مليكة، رحمك الله أوص، فقال:

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمه يريد أن يعربه فيعجمه

فقالوا له: هذا مثل الذى كنت فيه، فقال:

قد كنت أحيانا شديد المعتمد وكنت أحيانًا على الخصم ألد
فوردت نفسى وما كادت ترد

فقالوا له ماذا تطلب، فقال: تحملونى على أتان (بغل) وتتركونى راكبها حتى أموت، فإن الكريم لا يموت على فراشه، والأتان مركب لم يمت عليه كريم قط، فحملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون عليها حتى فاضت روحه إلى بارئها!

❑❑❑

همام بن غالب.. (الفـرزدق)

هو همام بن غالب بن صعصعة من دارم من مجاشـع من قبيلة تميم والتـى كان لها شـأن كبير فى الجاهلية والإسـلام، كنـى أبا فراس.. إحدى صفات الأسـد، ولقب بالفرزدق لجهومة وجهه وأثر من الجدرى منطبع فيه، ومن أطرف ما قيل حول لقبه أنه قدم نفسـه لأحد الشيوخ الـذى حاول تجاهله: أنا الفرزدق، فسـأله: ومن الفرزدق؟.. فرد أو ما تعرفه؟.. فأجاب الشـيخ: إنه شيء تتخذه النساء عندنا بالمدينة تتسمن بـه، وهـو الفتوت، فضحك الفـرزدق طويلا ثم قـال: الحمد لله الذى جعلنى فى بطون نسائكم!

وقد كان الفرزدق شديد الفخر بأبيه وجده وقومه، وقيل إن أباه ذبح مائة ناقة مرة واحدة ليطعم منها القوم فى عام الجدب، كما اشتهر جده صعصعة بأنه ممن فدى الموءودات فى الجاهلية ونهى عن قتلهن، وقيل إنه فدى أربعمائة منهن، وافتخر الفرزدق بتلك الحادثتين ورددهما كثيرا فى شعره.. ومما قاله:

أبـى أحد الغيثين صعصعة الذى متى تخلف الجوزاء والنجم يمطر
أجـار بنـات الوائديـن ومن يجر على القبر يعلـم أنه غيـر مخفـر

وتـزوج الفـرزدق الكثير من النسـاء، أولهن النوار ابنـة عمه والتى تزوجها بخدعة، حيث وكّلته فى عقد زواجها من أحد شباب العشيرة،

إلا أنه استعمل التوكيل لنفسه وتزوج بها بغير رضاها، ثم صالحها وعاشت معه وأنجبت منه عدة أبناء سماهم بأسماء غريبة مثل: حبطة، ولبطة، وسبطة، كما كان له ابنة واحدة «مليكة» من جارية سوداء.

ويروى أن الفرزدق نطق الشعر مبكرا، وقد اصطحبه أبوه إلى أمير المؤمنين على ابن أبى طالب بعد موقعة «صفين» الذى نصحه بتعلم القرآن وحفظه، وقد كان الفرزدق يرعى غنم لوالدته، فتغافل عنها فهجم الذئب عليها والتهم منها كبشا، فقال شعرا يبرر فيه ما حدث بسبب جوع الذئب وإهماله هو، ثم يعتذر لوالدته عما حدث، ويقول فى نهاية الأبيات إن همته أعظم من الرعى.. فهو يطمح إلى عظائم الأمور

تلوم على أن أصبح الذئب ضأنها ... فألوى بكبش وهو فى المرع راتع
وقد مر حول بعد حول وأشهر ... عليه ببؤس وهو ظمأن جائع
أغار على خوف وصادف غرة ... فلاقى التى كانت عليها المطامع

وذلك إلى آخر القصيدة، الذى عاد مرة أخرى ليحكى عن صداقته للذئب الذى دعاه إلى وليمة، على الرغم من حذره منه، وهى قصيدة جميلة قلده فيها بعد ذلك كل من البحترى والشريف الرضى، حيث يبدأ بوصف الذئب بالأغبر المختال الذى جاء على النار التى أوقدتها، فأخذ يطعمه متحفظا بسيفه فى يده حذرا منه:

وأطلس عسال وما كان صاحبا ... دعوت لنارى موهنا فأتانى
فلما أتى قلت ادن دونك إننى ... وإياك فى زادى لمشتركان
وبت أخد الزاد بينى وبينه ... على ضوء نار مرة ودخان

وقلت لـه لـا تكشـر ضاحكـا وقائـم سيفـى فـى يدى بمكان
تعيش فإن عاهدتنـى لا تخوننى نكن مثل من يا ذئـب يصطحبان

وقد ترك الفرزق ديوانا ضخما للشـعر، لا يتسع المجال هنا إلا لذكر بعض منه، فقد وصف بأنه «كان صحيفة العرب» وقيل إنه «لولا الفرزدق لضاع الكثير من الأخبار وثلث اللغة».. فقد سـجل بشـعره القضاء على الخـوارج، وأيضا محـاولات عبد الله بن الزبير اسـتلاب الخلافة بعد الحسـين بن على لنفسـه، ومحاولات الحجـاج وأد الفتنة فى العراق. كذلك تصديه لهشـام بن عبدالملك عندما حاول تجاهل زين العابدين بن الحسين فى موسم الحج، حيث خاطبه مرتجلا:

هـذا الـذى تعـرف البطحـاء وطأته
والبيت يعـرفه والحـل والحـرم
هذا ابـن فاطمـة إن كنـت جاهله
بجـده، أنبياء الله قـد ختمـوا
وليـس قولك: مـن هـذا؟.. بضـائره
العرب تعرف من أنكـرت والعجـم
ما قال: لا ، قط، إلا فـى تشهده
لـولا التشهـد كـانت لاؤه نعـم

ومع ذلك فقد مدح هشام بن عبد الملك واعتذر له عن ذنب لم يرتكبه، تماما كما اعتذر النابغة للنعمان ملك الحيرة فى الجاهلية:

خليفة أهل الأرض أصبح ضوؤه
به كان يهدى للهدى كل مهتد
فلست أخاف الناس مادمت سالما
ولو أجلب الساعى إلى بحسدى
ولا ظلم ما دام الخليفة قائما
هشام وما عن أهله من مشرد
فلا دفعت إن كنت قلت الذى رووا
على ردائى حين ألبسه يدى

وقد تميز الفرزدق بالمدح والهجاء، وكان أكثر هجائه فى رفيق دربه جرير وسوف نتحدث عن ذلك لاحقا، فقد استمرت المعركة بينهما أربعين عاما، ولكننا نكتفى هنا بمعايرته لجرير بذكر مناقب قومه وعزتهم.. ويسأله أين أنت من ذلك؟

إن الذى سمك السماء بنى لنا
بيتا دعائمه أعز وأطول
بيتا بناه لنا المليك وما بنى
حكم السماء، فإنه لا ينقل
أحلامنا تزن الجبال رزانة
وتخالنا جنا إذا ما نجهل
فادفع بكفك – إن أردت بناءنا –
ثهلان ذا الهضبان هل يتحلحل؟

كما عرف عن الفرزدق حبه للخمر وعشـقه للنساء ومطاردتهن، وله قصيدة طويلة يروى فيها كيف صعد لإحداهن على الجبال، وهى تذكرنا بلهـو كان من امرئ القيس وعمرو بن أبى ربيعة، إلا أنه فى آخر أيامه أخذ يندم على ما اقترفه من ذنوب، وقال قصيدة هاجم فيها إبليس:

أطعتـك يا إبليـس سبعين حجة فلمـا انتهى شيبى وتـم تمـامى
فـررت إلى ربـى وأيقنت أننـى مـلاق لأيـام المنـون حمامـى

كمـا روى أنه مرض مرضا شـديدا، ووصف له الكى والنقط شـرابا، فسـقوه فقال: اتعجلون علىّ شراب أهل النار فى الدنيا، ثم أوصى بعتق عبيده بعد موته، ثم قال مخاطبا من حوله:

أرونـى من يقـوم لكم مقامـى إذا مـا الأمـر جلّ عن الخطـاب
إلى مـن تفزعـون إذا حثوتـم بأيديكـم علىّ مـن التـراب؟

فقال أحد عبيده معزيا: نفزع بعدك إلى الله.. فأبطل الفرزدق وصيته فيه وأمر ببيعه قبل وفاته استمرارا فى العبودية!.

❑❑❑

جريـر.. مدينة الشعر

هو الشاعر رقيق الحس، عف اللسان، سهل المعانى، قوى التعبير، إنــه جرير بن عطية الخطفى، والذى لقب بأبــى حرزة (أكبر أبنائه)، وكذلــك بابن المراغة وهــو لقب وصفت به أمه من أحد الشــعراء الذين هجوه.

تميــز جرير عن رفيقيــه: الأخطل والفرزدق فى الغــزل والرثاء كما نازعهمــا فى الهجاء، ولكن مشــكلته أنه ولد فى فــرع فقير من قبيلته الكبرى تميم، وهو يربوع، وكانت أسرته بنو كليب رقيقة الحال، يرعون الغنم والحمير، لا خيل لهم ولا جمال عندهم! ومن ثم نشــأ بدويا فقيرا فى منطقة نجد، ولكن فى أســرة عرفت الشعر أجيالا، حيث كان جده ثم أبوه، ومن بعده أولاده وأحفاده، ينشــدون الشــعر ويجيدونه، كذلك إخوته عمرو وأبو الورد.

تزوج جرير من أكثر من واحدة وأنجبن له عشرة من الولد منهم ثمانية ذكور، وكان ينصح أولاده وأحفاده بأن أطيلوا الهجاء وأقصروا المادحة، وقال عن نفسه: «إنى لمدينة الشعر.. منها يخرج وإليها يعود..».

عرف جرير الشــعر وصاغه مبكرا، وجاء شعره سهلا مباشرا خاليا من التكلف والحشــو والتعقيد، فانتشر وجرى على الألسنة، فمن منا لم يردد بيته الشــهير والذى يهجو فيه الفرزدق «زعم الفرزدق أن ســيقتل مربعا، أبشــر بطول سلامة يا مربع» وأيضا كان شــعره الغنائى الجميل «العيون

القاتلة» والتى تغنى بأبياتها صداح العرب الفنان الكبير صباح فخرى.

إن العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا

والطريف أن تلك القصيدة الجميلة «العيون القاتلة» كان ينوى بها هجاء الشاعر الأخطل، إلا أنه كعادة الشعراء القدامى بدأ بالاسترسال فيها مع نفسه ووجده وذكرياته، فى شعر عذب ناعم، وهيام عميق.. كاد ينسيه غرضه.. وهو الهجاء، ومما قاله فيها أيضا:

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة
ردى على فؤادى كالذى كانا
ألست أحسن من يمشى على قدم
يا أملح الناس كل الناس إنسانا
لقد كتمت الهوى حتى تهيمنى
لا أستطيع لهذا الحب كتمانا
لا بارك الله فيمن كان يحسبكم
إلا على العهد حتى كان ما كانا

وكعادة الشعراء فى كل عصر، التحق جرير مع رفيقيه الأخطل والفرزدق بالأمويين وخاصة آل مروان، فمدحهم ودافع عنهم، وها هو ذا يفضلهم عمن سواهم ويذكر صلة الخلافة بالدين.

لولا الخليفـــة والقـــرآن يقـرؤه ما قام للنـاس أحكـام ولا جمـع
أنت الأميـــن أميـن الله لا سرف فيمـــا وليـــت ولا هيابـــه ورع
يا آل مـــــروان إن الله فضلكـــم فضلا عظيما على من دينه البدع

ويروى أن الخليفة عبد الملك بن مروان سمع بشعره فى الحجاج واليه علـــى العراق، فاغتاظ وتمنى لو صار إليه، فبعث به إليه مع ابنه محمد فاســتقبله عبد الملك معاتبا: ما داعـــى أن تقول فينا بعد قولك بالحجاج عاملنا.

من ســـد مطلـــع النفاق عليهم أمن يصـول كصولـة الحجاج؟
إن ابن يوسف فاعلمـوا وتيقنوا ماضى البصيرة واضح المنهـاج

ثـم أكمـــل الخليفـــة: إن الله لم ينصرنا بالحجاج، إنمـــا نصر دينه وخليفتـــه، وظهر الغضب على وجهه، فتوســـط ابن الحجاج بينهما، ثم أنشد جرير قصيدته المشهورة والتى يقول فيها:

ألستـم خيـر مـن ركب المطايـا وأندى العالميـن بطـــون راح
لكـــم شـم الجبال من الرواسى وأعظـم سبـــل معتلـج البطاح

فتبسّم عبد الملك، وقال: كذلك نحن، ومازلنا كذلك، وأمر له بعطية كبيرة، ومن بعدها لزمه جرير، ومدح أبناءه الوليد وسليمان ويزيد.

وكان جرير معجبا بالخليفة عمر بن عبد العزيز، حيث اعتبره خير من أناب إلى الله، ورعى حقوقه، وأقام حدوده، وأدى الأمانة العظمى صابرا فحزنت الدنيا لوفاته، وبكت الشمس لفقده.. وقال يرثيه بعد وفاته:

تنعـى النعـــاة أمير المؤمنين لنا
يا خير مـن حج بيـت الله واعتمـرا
حملت أمـرا عظيما ما اصطبرت له
وقمت فيـــه بأمـــر الله يا عمـــرا
فالشمـس طالعـــة ليست بكاشفة
تبكـى عليـك نجـوم الليل والقمرا

لقـد كان جريـر يجيـد الرثاء بل تفـوق فيه علـى رفيقيه الأخطل والفرزدق، وله قصيدة «الجوساء» يرثى فيها زوجته أم حرزة:

لولا الحيـاء لعـادنـى استعبـار
ولزرت قبـرك والحبيـب يـزار
ولقـد نظـرت وما تمتـع نظـره
فى اللحـد حيـث تمكـن المحضار

وكذلـك عندما رثى ابنه سـوادة، الذى توفى فـى حياته، وهى من المراثى التى كان يرددها الشاعر المعروف بشار بن برد إعجابا بكلماتها:

فارقتنى حين كف الدهر من بصرى
وحيـن صـرت كعظم الرمة البالى
أمسى سـوادى يجلـو مقلتى لحم
باز يصرصـر فـوق المربأ العالـى

وكذلك مرثيته الشهيرة لصديقه اللدود، ورفيق دربه الفرزدق:

لعمرى لقد أشجى تميما وهدها
على النكبات الدهر موت الفرزدق
عشية راحوا للفراق بنعشه
إلى جدث فى هوة الأرض معمق
لقد غادروا فى اللحد من كان ينتمى
إلى كل نجم فى السماء محلق
عماد تميم كلها ولسانها
وناطقها البذاخ فى كل منطق

أما الهجاء فقد كان زعيمه.. وكتب السيرة مليئة بما يسمى بالنقائض وهى الحرب الشعرية بينه وبين الفرزدق والأخطل، ونكتفى هنا بالإشارة إلى هذين البيتين اللذين عدا من عيون الفخر والهجاء معا:

إذا غضبت عليك بنوتميم حسبت الناس كلهم غضابا
فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وتميم كانت القبيلة الأم، أما نمير فعشيره الفرزدق وكليب وكعب عشائر جرير!

□□□

الأخطـــل الكبيـــر

هــو غياث بن غوث التغلبى، كنى بأبى مالــك (أكبر أبنائه) ولقب بالأخطل، وذلك لســفهه الشــديد وكثرة هجائه للنــاس، مع أنه عرف الشعر مبكرا، وعندما كبر كان أحد ثلاثة يعدون من فحول الشعراء وهم الأخطل وجرير والفرزدق، شــعراء العصر الأمــوى والذين حدث بينهم هجاء وتلاســن كبير.. وهو ما عرف فيما بعد بشــعر «النقائض» أى أن يقوم كل شــاعر بذكر نقيصه مشــهورة فى شاعر آخر أو فى قبيلته، وقد انحاز الأخطل إلى الفرزدق فى معركته الشعرية مع جرير.

وقد لقب النقاد شاعرنا بالأخطل الكبير، لأن هناك أخطل آخر عرفه الشــعر العربى الحديث، وهو الشــاعر اللبنانى المشهور بشارة الخورى والــذى لقــب بالأخطل الصغير وتغنت بأشــعاره كل مــن فيروز ونجاة وغيرهما.

كما عرف شاعرنا بشاعر بنى أمية، حيث كان أغلب مديحه فيهم، وخاصــة مــروان بن عبــد الملك وابنــه يزيد والذى اســتعان به فى صد هجوم أحد شــعراء الأنصار على بنى أمية ونســائهم، فقد أطلق الأخطل لسانه فى الأنصار وجعلهم دون قريش مكانة وشرفا، وجعل اللؤم تحت عمائمهم، ووصفهم بالجبن والتخاذل عند القتال.

ذهبـت قريـش بالمكـارم والعلا واللؤم تحــت عمائـم الأنصـار
فذروا المعالى لستـم مـن أهلهــا وخذوا مساحيكـم بنـى النجار

والطريف أنه على الرغم من أن أمه كانت نصرانية وأبوه كذلك، فإن والـده طلق أمه وتزوج بأخرى.. كان كثير الشـجار معها، فلقبته دوبلا وهـو الحمار الصغير، المهم أنه عندما اتصل بخلفاء بنى أمية وأصبحت له حظوة كبيرة فى بلاط الحكم قصر مديحه عليهم ومما قاله فيهم:

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا
هم الذين يبارون الريـاح إذا قل الطعام على العاقين أوقتروا
بنـى أميـة، نعماكـم مجللـة تمت، فلا منـة فيهـا ولا كدر

وتروى كتب السـيرة وديوانه الكثير من القصائد التى تميزت برصانة الألفـاظ وفخامتها وجزالتها، وخاصـة مدائحه فى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان والتى تعد من درره الشعرية، حيث يقول فيها:

وقـد جعـل الله الخلافـة فيكـم
بأبيض لا عارى الخـوان ولا جـدب
ولكـن رآه الله موضـع حقهـا
علـى رغـم أعـداء وصـدادة كذب
أهلـوا مـن الشهـر الحـرام فأصبحوا
موالـى ملك لا طريـف ولا غصـب

ولم يكتف الأخطل بمدح الأمويين من آل مروان، بل إنه كان كالداعية السياسية لبنى أمية، فقد نوه فى إحدى قصائده بانتصار معاوية بن أبى سفيان (أول خليفة أموى) فى موقعة «صفين» وأن الله اختارهم للخلافة، حيث قال:

ويـوم صفيـن والأبصـار خاشعـة أمدهم – إذ دعوا من ربهم – مدد
وأنتـــم أهـــل بيـت لا يوازيهم بيـت إذا عُـدت الأحساب والعدد

وله أبيات جميلة يشـبه فيها يزيد بن عبدالملك بأنبياء الله يوسـف وهارون ونوح وداود:

أمـا يزيـد فإنـى لسـت ناسيه حتى يغيبنى فى الرمس ملحـود
جـزاء يوسـف إحسانا ومغفـرة أو مثـل ما جـزى هـارون وداود
أو مثـل مـا نال نـوح فى سفينته إذ استجـاب لنـوح وهو منجود
أعطـاه مـن لـذة الدنيا وأسكنه فـى جنـة نعمـة منها وتخليد

أمـا فى الفخر.. فقد تفوق الأخطل على زميله جرير والفرزدق، وهو هنا يهاجم إحدى عشـائر قبيلة قيس والتى كانت على خلاف دائم مع قبيلتـه تغلـب، وكيف ينفيهم الناس عن الميـاه، ولم تكن تأخذهم بهم هوادة ولكنهم كانوا ينالون منهم أشد أنواع العقاب.

إذا احتضـر الناس الميـاه نفيتـم
عن الماء حتى يصبح الحوض خاليا
أجحّاف ما مـن شـح ذاق حربنـا
فيفلـت إلا ازداد عنـا تناهيـا
وما تمنـع الأعـداء منـا هـوادة
ولكنهـم يلقـون منـا الدواهيـا

كما كان شـاعرنا يتميز بالحكمة، وها هو ذا هنا يبكى شـبابه الذى

لن يعود، فلن ينفع مع الشـيب أى دواء، كما أنه يقارن بين الشـباب البشوش والشيب الذى ينصرف عنه الناس:

هل الشـباب الذى قد فات مـردود
أم هـل دواء يـرد الشيـب موجود؟
لن يرجع الشيـب شبانا ولن يجدوا
عدل الشباب لهـم مـا أورق العـود
إن الشبـاب لمحمـود بشاشتـه
والشيـب منصـرف عنـه مصدود

وقد كان الأخطل يحب الخمر ويهواها ويسعد بتناولها:

صهباء قد كلفت من طول ما حبست
فـى مخـدع بيـن جنـات وأنهـار
عذراء لـم يجتـل الخطاب بهجتها
حتى اجتلاهـا عبـادى بدينـار

فالخمر المعتقة كالعذراء، والعبادى هنا هو بائع الخمر.

□□□

الأمير الشاعر.. يزيد بن معاوية

هذا واحد من الأمراء الشعراء لم يكن فارسا مقداما مثل أبى فراس الحمدانى، وذكر أن سبب وفاته.. سقوطه من على ظهر حصانه، وقد حيرنى كثيرا، إنه يزيد بن معاوية ثانى خلفاء بنى أمية بعد أبيه معاوية ابن أبى سفيان، وتروى كتب التاريخ أنه أمر عبد الله بن زياد والى الكوفة بمحاربة الحسين بن على وأتباعه.. فهزمهم فى كربلاء، وبعد مقتل الحسين فى المعركة حملت رأسه ووضعت أمام اليزيد فى مقر حكمه بدمشق الشام.. فأخذ يعبث بها بعصا كانت فى يده، ولم يحترم حرمة الموتى التى أوصانا بها ديننا وجبلت العرب جميعا على احترامها على مر الزمان، فكيف لمثل هذا (الإنسان) الذى عبث برأس حفيد الرسول بعد أن فصلت عن جسده.. يصدر عنه هذه الأشعار الناعمة وتلك القصيدة الرائعة (وعضت على العناب بالبرد) والتى تغنى بها الكثير ومنهم مطرب السودان الشهير عبد الكريم الكابلى.

والمشكلة أن كل من كتب عن أشعار اليزيد وقصيدته.. أشار إلى أنه كان مرهف الحس رقيق الطبع.. وأن عنف السياسة ومكرها لم ينعكس على أشعاره.. حيث يقول فى إحدى قصائده:

خذوا بدمى ذات الوشاح، فإننى رأيت بعينى فى أناملها دمى
ولا تقتلوها إن ظفرتم بقتلها بلى، خبروها بعد موتى بمأتمى

إنه يطلب بثأره من تلك الحسناء التى رأى دمه فى أناملها، والثأر

عنـده ألا يقتلوهـا إذا عثروا عليهـا وإنما يخبرونها بموعـد مأتمه بعد مماته ! !

والغريـب أنه يقول فـى ذات القصيدة إنه عندما التقاها عاتبها على هذا الدم الذى رآه فى أصابعها فكان ردها عليه :

وعيشـك ما هـذا خضابـا عرفتـه
فلا تك بالبهتان والـزور متهمـى
ولكننـى لمـا رأيتـك نائيـا
وقد كنت لى كفى وزندى ومعصمى
بكيـت دما يـوم النـوى، فمسحته
بكفى، وهـذا الأثـر من ذلك الدم

بمعنى أنها لم تتزين قط بعد رحيله، ولكنها بكت عليه كثيرا حتى أسقطت دما، وعندما أرادت مسحه بكفيها علق الدم بأناملها !

أما القصيدة التى نحن بصددها فبدأها بوصف محبوبته وكيف فعلت به.. فيقول :

نالـت علـى يدهـا مـا لم تنله يدى
نقشا على معصـم أوهـت بـه جلـدى
كـأنه طـرف نمـل فـى أناملهـا
أو روضة رصعتهـا السحب بالبـرد
وقـوس حاجبهـا مـن كـل ناحيـة
ونبـل فعلتهـا ترمـى بهـا كبـدى

مـــدت مواشطهـــا فـى كفهـــا شركا
تصيد قلبى بـه مـــن داخـــل الجسـد
أنيســـة لـــو رأتها الشمس ما طلعـت
مـــن بعـــد رؤيتهـــا يوما على أحـــد
ســـألتهـا الوصـل، قالت: لا تغرَّ بنا
مـــن رام منـــا وصـــالا مـــات بالكمد

هذه الأبيات الجميلة الناعمة.. ذكرتنى بأبيات أخرى لا تقل جمالا قالها الشـــاعر العربى عبد السلام بن رغبان والملقب بديك الجن.. حيث قال:

لما نظـرت إلى مـــن حـــدق المهـــا وبسمـــت عـــن متفتـــح النـــوار
وعقـدت بيـــن قضيـب بان أهيف وكثيـــب رمـــل عقـــدة الزنـــار
عفرت خدى فى الثرى لك طائعـا وعـزمت فيـك علـى دخول النار

ونعـــود إلى القصيدة الرائعـــة «وأمطرت لؤلؤا» لهذا الأمير الشـــاعر.. فبعـــد أن وصفها ووقع فى هواها. حذرتـــه من الاقتراب منها.. لأن كل مـــن حاول ذلك مـــات كمدا.. ولكنها وبمرور الأيام عادت وســـألت عنه فأخبروها بحاله.. فتحســـرت عليه وبكـــت وانتحبت.. وانهمرت منها الدموع غزيرة، وعضت بأســـنانها على شـــفتيها.. وقالـــت إن أحدا لن يحزن على عزيز لديه كما حزنت عليه.. ثم يندهش الشـــاعر من الذين يحسدونه على هذا الحزن من قبل المحبوبة.. وهو ميت!

ولكـــن الجمال كله فى وصف الشـــاعر للمحبوبة وهى حزينة عليه..

حيـث دموعها لؤلؤ، وعينهـا نرجس وخداها ورد، وشـفتاها عناب، وأسنانها برد.. ومن المعروف أن البرد هو ماء الغمام الذى يسقط كالندى فـى الصباح الباكر، والمهم أن كل هـذه الصور الجميلة جاءت فى بيت واحد فقط.. حيث يقول:

واسترجعـت سألت عنى، فقيل لهـا
مـا فيـه مـن رمـق، دقت يدا بيد
وأمطرت لؤلؤا مـن نرجـس، وسقت
وردا، وعضـت علـى العناب بالبرد
وأنشدت بلسـان الحـال قائلـة
من غير كـره ولا مطـل ولا مـدد
والله مـا حزنت أخت لفقـد أخ
حزنى عليـه، ولا أم علـى ولـد
إن يحسدونى على موتى، فوا أسفى
حتى على المـوت لا أخلو من الحسد

فهل قرأتم أجمل من ذلك.

وأعـود إلى ديك الجن الـذى لا أخفى إعجابى به.. حيث قال ذات المعانى وهو يودع محبوبته:

ودعتهـا لفـراق فاشتكـت كبـدى
إذا شكـت يدها مـن لـوعة بيـدى

فكـــان أول عهـد العيـن يوم نأت

بالدمع، آخر عهـد القلـب بالجلـد

جس الطبيب يـدى جهلا فقلت له:

إن المحبـــة فـى قلبى.. فخل يدى

نعم.. فالشكوى ليســت دليل المرض.. وإنما العقل يعانى.. والجسم يتألم!

□□□

أبو تمـام.. حبيب الطائى

هو أحد أمراء الشعر فى العصر العباسى، إنه حبيب بن أوس الطائى، ولد بإحدى القرى السورية وكنى بأبى تمام – أكبر أبنائه – عرف الشعر مبكرا، وانتقل بين سوريا ومصر وبغداد وخراسان وغيرها، وتولى مسئولية بريد الموصل ولكنه لم يعش طويلا حيث توفى دون الأربعين عاما.

وصف بأنه كان أسمر، طويلا فصيحا، حلو الكلام، حفظ أربعة عشر ألـف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقطوعات، تميز شـعره بالقوة والجزالة وبعض الألفاظ والتراكيب الغريبة وقتها.. حتى إنه سُئل مرة: لم لا تقول من الشـعر ما يعرف، فأجاب سـائله مستنكرًا: وأنت لم لا تعرف من الشعر ما يقال، بل إنه وصف شعره باللآلئ الفريدة:

مفصلـة باللؤلـؤ المنتقـى لها من الشعر إلا أنه اللؤلؤ الرطب

وقد ترك أبو تمام ديوانا ضخما وعدة كتب مهمة منها: تحول الشعر، وديوان الحماسـة والذى جمع فيه أشعار كثير من القدامى، والمختار من شعر القبائل، ونقائض جرير والفرزدق.

وكان شاعرنا قد بدأ حياته مساعدا لوالده (الخياط) ثم انتقل إلى مصر عند أحد أقاربه وعمل سـاقيا فى المسـاجد بهدف الاختلاط بالدارسين وشيوخ العلم فى مساجد القاهرة.. خاصة فى اللغة والنحو والفقه والأدب وعلوم الدين بجامع عمرو بن العاص بمنطقة الفسـطاط بالقاهرة، ثم بدأ

فى قول الشعر وذاع صيته فاستدعاه الخليفة المعتصم إلى بغداد مقر الحكم العباسى.. وقربه منه وأوصى به وزراءه وقواده..

وقد تميز أبو تمام فى شعر المديح وله قصائد كثيرة فى هذا المجال.. كان أشهرها وأجملها ما قاله فى الخليفة المعتصم بعد فتحه لمدينة عمورية الرومية، وقد خالف فيها أبو تمام ما كان سائدا فى استهلال القصائد بالغزل والوقوف على الأطلال.. حيث بدأ مباشرة بحكمة استوحاها من الحدث:

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

ثم شن هجوما عنيفا على المنجمين الذين أشاروا على المعتصم بتأجيل الهجوم حتى فصل الصيف وإلا تعرض لهزيمة ساحقة، حيث يقول فيهم:

والعلم فى شهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
وخوفوا الناس من دهماء مظلمة
إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب

ويستمر أبو تمام مشيدًا بما حدث معتزا بهذا الفتح العظيم والانتصار الباهر والذى يعلو على الوصف من نثر وشعر إنما تبتهج الأرض به وتفتح له السماء أبوابها:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض فى أثوابها القشب

ولأبى تمام قصيدة أخرى فى مدح المعتصم يصور فيها جوده وكرمه وكثرة عطاياه، يقول فيها:

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تجبه أنامله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

وكما مدح أبو تمام الخليفة المعتصم، مدح أيضا وزيره محمد بن عبد الملك الزيان وكان أديبا شاعرا، ولكنه عاير أبا تمام من أنه يمدح من يدفع له، ويبيع بضاعته لمن يشتريها، حيث قال لأبى تمام:

رأيتك سهل البيع سمحا وإنما يغالى إذا ما ضن بالشىء بايعه
فأما الذى هانت بضائع بيعه فيوشك أن تبقى عليه بضايعه

فأجابه أبو تمام بأقوى مما أرسل إليه:

أبا جعفر إن كنت أصبحت تاجرا أساهل فى بيعى له من أبايعه
فقد كنت قبلى شاعرا تاجرا به تساهل من عادت عليك منافعه!

أشرنا إلى أن أبا تمام شارك فى الفتوحات وتنقل بين البلاد، وها هو ذا يصف حاله وماذا يفعل الدهر معه، ولكن لن تقهره الأيام ولن تضعف عزيمته:

وغربت حتى لم أجد ذكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا
خطوب إذا لاقيتهن رددننى جريحا كأنى قد لقيت الكتائبا

وقد يكهم السيف المسمى منية وقد يرجع المرء المظفر خائبا
وكنت امرءا ألقى الزمان مسالماً فآليت لا ألقاه إلا محاربا

ومع ذلك.. فقد كان أبو تمام معتزا بنفسه فخورا بقومه وقبيلته الشهيرة طىء والتى كان منها أيضا تلميذه البحترى، وها هو ذا يصور أمجادهم ومكارمهم:

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم
وسمى فيهم وهو كهل ويافع
مضوا وكأن المكرمات لديهم
لكثرة ما أوصوا بهن شرائع
بها ليل لو عاينت فيض أكفهم
لأيقنت أن الرزق فى الأرض واسع

وكما تفوق أبو تمام فى المدح والفخر، تفوق أيضا فى الرثاء وها هو ذا يرثى أحد قادة المسلمين الذى استشهد فى إحدى المعارك وقيل: إنه غمس طرف ردائه فى مداد، ثم ضرب به كتفيه وصدره وأخذ يندبه بقصيدته الرائية الشهيرة التى قال فيها:

فتى كلما فاضت عيون قبيلة
دما، ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى مات بين الطعن والضرب حينه
تقوم مقام النصر إن فاته النصر

وما مات حتى مات مضرب سيفه
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

ولأبي تمام أيضا أبيات جميلة تمثل «حكمًا» على مر الزمان بعضها في مقاومة الهموم ومعاتبة السهر.. مثل قوله:

أفنى وليلى ليس يفنى آخره هذا موارده فأين مصادره!
نامت عيون الشامتين تيقنا أن ليس يهجع والهموم تسامره

وبعضها الآخر في الغزل الرفيع.. والحنين إلى الحب الأول.. مثل قوله:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبدا لأول منزل

رحم الله حبيب الطائي «أبو تمام» أحد أمراء الشعر ومجيديه، والذي مات دون الأربعين.. شابا يافعا، وقد نعاه أحد الشعراء قائلا:

فجع القريض بخاتم الشعراء وغدير روضتها حبيب الطائي
ماتا معا فتجاورا في حفرة وكذاك كانا قبْلُ في الأحياء

□□□

١- أبـو نـواس.. الشعـر والمجـون!

إنه «الحســن بن هانى» الشــهير بـ (أبو نواس).. الذى عاش حياته «كما شــاء» أو بالطول والعرض، كما يقول المثل الشــعبى ولد عام ١٤١ هجرية لأب يمنى وأم فارســية فى مدينة الأهواز بالعراق فى فترة صعود نجم الدولة العباســية، تنقل كثيرا بين المدن العراقية البصرة، والكوفة، وبغداد، ثم مصر وبعض البلاد العربية الأخرى، تتلمذ على أشهر شعراء عصــره ومنهم والبة بن الحبــاب الذى عوده على شــرب الخمر وخلط الفنون بالمجون، ثم الشــاعر «خلف الأحمر» الذى علمه أصول الشــعر وكيفيــة إجادتــه وأجبره على حفــظ «ألف من مأثور للعــرب، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة»، ولم يســمح له بقول الشــعر إلا بعد أن نسى ما حفظه من قبل!

وقد مات أبوه وهو صغير وتولت أمه رعايته وأرسلته إلى بعض مجالس الدرس والعلــوم الدينية والأدبية فى الدواوين والمســاجد،ولكنها كانت امــرأة لاهية لعــوب فانصرف عنها وعمل فى العطــارة بمدينة البصرة، ثم انتقل إلى الكوفة والتقى بأســتاذه والبة بن الحباب وبعض الشــعراء الآخرين مثل حمادة عجرد ومطبع بن إياس ويحيى بن زياد الذين تعلم منهم كيفية نظم الشعر، وضبط القوافى.. وكان أول ما أنشده من غزل:

حامل الهوى تعب يستخفـه الطــرب
إن يكن يحـق لــه ليـس ما بــه لعب

ولكن أشعاره نضجت وتنوعت بعد أن لحق بأستاذه الثانى خلف الأحمر الذى طلب منه أن يسمعه كيف يرثيه بعد موته.. فقال أبو نواس:

أودى جماع العلم مذ أودى خلف
من لا يعد العلم إلا ما عرف
فكلما نشاء منه نغترف
رواية لا تجتنى من الصحف

فيعلق الأحمر بقوله: يا بنى إن شعرك فوق سنك، ولئن عشت لتكونن رئيسا فى الشعر!

ولكن مشكلة أبى نواس أنه كان هوائيا متقلبا وكان يكره التعصب العربى، خاصة أن أمه فارسية، وقد صعد نجم الموالى من الفرس فى عهد الخلفاء العباسيين ومن ثم كان يقارن بين العرب والفرس.. ومما قاله:

تراث أنو شروان كسرى، ولم تكن
مواريث ما أبقت تميم ولا بكر

بل كثيرا ما كان يهزأ بالشعراء العرب القدامى الذين كانوا يبدأون قصائدهم بالبكاء على الأطلال:

دع الرسم الذى دثرا يقاسى الريح والمطرا
ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمن غبرا

أو يقول فى مقطوعة أخرى:

عاج الشقى على رسم يسائله
وعجت أسأل عن خمارة البلد
قالوا ذكرت ديار الحى من أسدٍ
لا در درك! قل لى من بنو أسد!
ومن تميم؟ ومن قيس ولفهما؟
ليس الأعاريب عند الله من أحد.

ولم يكتف أبو نواس بمهاجمة العرب وأعرافهم وتقاليدهم بل ساير ما انتشر فى عصره من الخوارج والتكاكين والدهريين والنصرانية والزنادقة.. والذين تصدوا لهم من المتكلمين والمعتزلة، وقد دخل أبو نواس تلك المعارك من الجدل الفكرى.. ومما قاله فى ذلك:

يا ناظر الدين ما الأمر لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندى جميع الذى يذكر إلا الموت والقبر

بل أحيانا كثيرة كان يفرط فى الشراب ويزداد مجونه ويدفعه ذلك إلى الاستهتار وإنكار الثوابت من الدين:

وملحة باللوم تحسب أننى بالجهل أوثر صحبة الشطار
بكرت على تلومنى فأجبتها «إنى لأعرف مذهب الأبرار»
فدعى الملام فقد أطعت غوايتى وصرفت معرفتى إلى الإنكار
ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة من مات أو فى نار!

وقد تصادف أن رأى أبو نواس جارية حسناء.. فوق القصيرة

والطويلة فوقها، دون السمين ودونها المهزول.. فوقع فى حبها ولكنه كان حبا من طرف واحد.. فانتهى بالفشل وترك ذلك فى حلقه غصة وفى قلبه حسرة، ولكن أطرف ما يحكى فى هذا المجال أنه علم أن الجارية «جنان» سوف تذهب للحج مع مولاها فتبعها حتى وهى تطوف بالكعبة. وزاحمها وهى تلثم الحجر الأسود وألصق خده بخدها، ولم يراع حرمة المكان وجلال الموقف:

وعاشقين التف خداهما عند التثام الحجر الأسود
فاشتفيا من غير أن يأثما كأنما كانا على موعدى
لولا دفاع الناس إياهما لما استفاقا آخر المسند
ظللنا كلانا ساترا وجهه -مما يلى جانبه- باليد
نفعل فى المسجد مالم يكن يفعله الأبرار فى المسجد

وكان أبو نواس هجاءا شتاما.. تقرب من الخلفاء والأمراء واتصل بالبرامكة فى عهد هارون الرشيد فمدح من أعطاه وهجا من منعه:

وممن أحسنوا إليه.. يحيى بن خالد البرامكى الوزير الأول لهارون الرشيد، وقد قال فيه:

سألت الندى: هل أنت حّر فقال لا
ولكننى عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة
توارثنى عن والد بعد والد

هـذا بينما هاجم ابنه جعفر ابن يحيى وزير البلاط والذى كان مقربا للخليفة، فحاول تقبيح صورته وتعجب من إيثار هارون له.. فوصفه بأنه شكل الذئب وقفاه طويل:

عجبـت لهـارون الإمـام وما الذى يود ويرجـو فيـك يا خلقـة السلق
قفا خلـف وجـه قـد أطيل كأنه قفا مالك يقضى الهموم على ثبق.

❑❑❑

٢- أبو نواس.. وتوبة متأخرة!

بعد أن انقلب هارون الرشيد على البرامكة.. وأنهى نفوذهم فى دولة الخلافة.. قتل منهم الكثير واستولى على قصورهم.. وعلق رؤوس بعضهم فـى الميادين، واختار الفضل بين الربيع وزيرا أول له، حاول أبو نواس التودد للأخير إلا أن الفضل لم يكن فى كرم البرامكة ولا كثرة عطاياهم، فيسارع أبو نواس يذكّر «آل الربيع» بأن الأيام دول، وأنه لو حفظ الدهر حق البرامكة فسوف يحفظ حقهم:

ما رعـى الدهـر آل برمـك لمـا أن رمى ملكهم بأمـر فظيـع
إن دهـرا لـم يرع حقا ليحيى غيـر راع زمـام آل الربيـع

وعندمـا لاحظ أبو نواس بعد نكبة البرامكة أن هارون الرشـيد أصبح صاحـب الأمر والمطلق اليد فى خزائـن الدولة والمتحكم الأول فى البلاد والعباد.. سـارع بتحيّن الفرص لمدحه.. سـواء فـى انتصارات جيوش الخليفـة فى آسـيا الصغرى على جيوش الروم، أو عندما أخذ الرشـيد البيعة بولاية العهد لأولاده الثلاثة: الأمين والمأمون والمؤتمن، كل واحد بعد الآخر.. وفى تلك يقول أبو نواس:

تبـارك مـن سـاس الأمـور بعلمه وفضـل هارونـا علـى الخلفـاء
نزال بخير ما انطوينا على التقى ومـا ساس دنيانـا أبـو الأمنـاء

إلا أنـه لم ينل مـا كان يتوقعه.. فعزم على الخروج إلى مصر، والتى

كانـت فى ذلك الوقت تنعم بوفرة الخـيرات وكانت تعد أغنى ولايات الخلافة، وكان خراجها يمثل الركن الأكبر فى خزانة الدولة.

وفى تلك الأثناء اختار الرشيد ولاة جددًا غير الذين كانوا يعملون مع البرامكة، فاختار الحسـين بن جميل على ولاية مصر، وفصل تحصيل خراجها لأمير آخر هو أبو النصر الخصيب بن عبد الحميد والذى تنسب إليـه «منية بنى خصيب» بمحافظة المنيا حاليا، وقد كان الخصيب من محبى شـعر أبى نواس، فأرسـل إليه يدعوه للزيارة وسـارع أبو نواس بالاسـتجابة، فالظروف فى بغداد لم تكن فى صالحه، حتى إنه عاتب جارته عندما حاولت أن تنهيه عن السفر إلى مصر:

تقـول التى عن بيتها خف مركبى
عزيـز علينـا أن نـراك تسيـر
أمـا دون مصـر للغنـى متطلـب
بلـى.. إن أسبـاب الغنـى لكثير
فقلت لهـا – واستعجلتهـا بوادر
جـرت، فجرى فى جريهن عبير
ذرينـى- أكثـر حاسديك- برحلة
إلى بلـد فيهـا (الخصيب) أميـر

والطريف أنه عندما حضر أبو نواس إلى مصر فى عهد أمير خراجها الخصيب، ومدحه بأكثر من قصيدة.. منها:

أنـت الخصيب وهذه مصر فتدفقـا فكلاكمـا بحـر

لا تقعد الى عن مدى أملى شيئا فما لكما به عذر
ويحق لى إن صرت بينكما أن لا يحل بساحتى فقر
النيل ينعش ماؤه مصرا ونداك ينعش أهله الغمر

فبعد هذا المديح لمصر وأميرها.. نجده قد هجا المصريين واتهمهم بالبخل وسفح الدماء! وأن نيلهم ملئ بالتماسيح:

دم المكارم بالفسطاط مسفوح
والجود قد ضاع فيها وهو مطروح
يأهل مصر لقد غبتم بأجمعكم
لما حوى قصب السبق المساميح
أموالكم جمة، والبخل عارضها
والنيل مع جوده فيه التماسيح

وله قصيدة أخرى فى أهل مصر. يقول فيها:

محضتكم يا أهل مصر نصيحتى ألا فخذوا من ناصح بنصيب
فان يك فيكم إفك فرعون باقيا فإن عصا موسى بكف خصيب

وبعد أن عاد إلى بغداد اضطر الخليفة هارون الرشيد أن يضع شاعرنا أبا نواس فى السجن بعد أن زاد مكره ومجونه وانتشار أشعاره التى يتغزل فيها فى الغلمان:

تمر فاستحييك أن أتكلما ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلما

بحسبك أن الجسم قد شفه الضنى وأن جفونـى فيـك قد زرفت دمـا

وعندمـا تولى الأمين الحكم بعد وفـاة والده احتضن أبا نواس وجعله شـاعر البلاط وأغدق عليه الكثير من الأموال، ولكنه اضطر أيضا لحبسه فى السجن بعد أن ساءت سمعته وجهره بشرب الخمر:

آلا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر

ولا تسقنـى سـرا إذا أمكـن الجهـر

ويقول أيضًا فى الغرض نفسه:

عاذلـى فـى المدام غير نصيح لا تلمنـى علـى شقيقة روحى

لا تلمنى علـى التـى فتنتنـى وأرتنـى القبيـح غيـر قبيـح

قهـوة تتـرك الصحيح سقيما وتعير السقيـم ثـوب الصحيح

والطريـف أنه بعد أن أدرك الموت أبو نـواس، وانتهى أصدقاؤه من دفنه عادوا إلى منزله يبحثون عما ترك.. فوجدوا تحت وسادته رقعة من القماش مكتوب فيها:

يارب إن عظمـت ذنوبى كثرة فلقـد علمـت بأن عفـوك أعظم

مالى إليـك وسيلـة إلا الرجـا وجميـل عفوك، ثم إنى مسلم

□□□

البحتـــرى.. شاعر الوصف!

هــو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائى، ينتهى نســبه إلى قبيلة طيئ القحطانية (اليمنية)، وكانت أمه من قبيلة شيبان بن ربيعة (العدنانية) كنى بأبى عبادة، واشتهر بالبحترى، نسبة إلى بحتر أحد أجداده، وولد فى قرية منبج التابعة لمدينة حلب السورية، والتى ولد فيها أيضا الشاعر المعروف أبو فراس الحمدانى.

يقول البحترى متغزلا:

بيضـاء، يعطيـك القضيب قوامها
ويريــك عينيهــا الغــزال الأحور
تمشى، فتحكم فى القلوب بدلهـا
وتميس فـى ظـل الشبـاب وتخطر

لقد قرأ البحترى كتب التاريخ والسير، فضلا عن الشعر، كما استفاد من رحلاته إلى الشرق والغرب.. حتى قال:

مالـى وللأيــام، صــرّف صرفها حالى، وأكثر فى البــلاد تقلبــى
أمسـى زميـلا للظـلام، وأغتـدى ردفا على كفل الصّباح الأشهـب
فأكــون طــورا مشرقــا للمشـرق الأقصـى، وطـورا مغربا للمغرب

كمــا كان البحترى طموحا صاحب عزيمة، لا يرضى بالواقع إلا أنه كان مؤمنا بالقضاء والقدر.. وقد قال:

وأرى همتى تكلفنى حمل أمور خفيفهن ثقيل
ولو أنى رضيت مقسوم حظى لكفانى من الكثير القليل

وأيضا كان شجاعا مقداما، شارك فى بعض الغزوات والفتوحات ومنها مدينة عفرقس الرومية.. وها هو ذا يفخر بذلك:

وأنا الشجاع، وقد بدا لك موقفى بعفرقس والمشرفية شهدى
ورأيتنى، فرأيت عجب منظر ربّ القِصائد فى القنا المتقصد

وقد برع البحترى فى شعر الوصف، ومن منا لم يحفظ تلك الصورة الشعرية الجميلة بقدوم الربيع:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن، حتى كاد أن يتكلما
ورق نسيم الريح، حتى حسبته
يحيى بأنفاس الأحبة نعما

كما برع أيضا فى المدح الذى شكل أغلبية ديوانه، وقد كانت هذه عادة الشعراء فى العصر العباسى.. يمدحون الخلفاء والوزراء وكبار القادة لينالوا عطاياهم، وها هو ذا يمدح الخليفة ويصف موكبه بالتواضع، إلى جانب محبة الناس.. بل كاد المنبر يمشى إليه:

ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهى، ولا يتكبر
الله أعطاك المحبة فى الورى وحباك بالفضل الذى لا ينكر
فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لمشى إليك المنبر

ومما يذكر أن البحترى كان نديما للخليفة المتوكل ومستشاره الفتح بن خاقان، وفى إحدى الليالى دخل عليهم أنصار المنتصر ابن المتوكل فقتلوا الخليفة ومستشاره وهرب البحترى بعد أن تلقى ضربة فى ظهره بقيت آثارها عليه طوال حياته!

وقد قال شعرا جميلا فى المتوكل قبل وفاته، منه هذا العتاب الرقيق:

هل يجلبن إلى عطفك موقف ... ثبت لديك، أقول فيه وتسمع
مازال لى من حسن رأيك موئل ... آوى إليه من الخطوب ومفزع
فعلام أنكرت الصديق، وأقبلت ... نحوى ركاب الكاشحين تطلع
إلا يكن ذنب فعدلك واسع ... أو كان لى ذنب فعفوك واسع

ومع ذلك فقد كان دائما معتزا بنفسه، فخورا بقومه وأصوله القحطانية:

إن قومى قوم الشريف قديما ... وحديثا: أبوة، وجدودا
ذهبت طيئ بسابقة المجد ... على العالمين بأسا، وجودا

وأطرف ما يحكى عن البحترى، أنه واجه أحد الذئاب الجائعة، ولكنه لم يصاحبه كما فعل الشاعر الفرزدق، بل واجهه وصرعه، ثم شواه، ويقول فى ذلك:

سما لى، وبى من شدة الجوع ما به
ببيداء لم تعرف بها عيشة رغدا
عوى، ثم أقعى فارتجزت، فهجته

فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فخر، وقد أوردته منهل الردى
على ظما، لو أنه عذب الورد
وقمت، فجمعت الحصى فشويته
عليه، وللرمضاء من تحته وقد

كان البحترى شاعرا مثقفا درس الأدب القديم والمعاصر، فألف كتاب «الحماسة» الذى جمع فيه أشعار ستمائة شاعر أكثرهم من المخضرمين فى الجاهلية، كما وضع كتابا آخر فى «معانى الشعر» وترك ديوانا ضخما من الشعر الجميل فى الوصف والمدح والفخر والرثاء.. واختتم بهذين البيتين الناعمين!

أخفى هوى لك فى الضلوع، وأظهر
وآلام فى كمد عليك، وأعذر
وأراك خنت على النوى من لم يخن
عهد الهوى، وهجرت من لا يهجر!

❑❑❑

أبو العتاهية.. الشاعر الزاهد

هذا الشـــاعر المعروف كان ضحية الظروف فى بداية حياته، فقد ولد فى أســـرة فقيرة مغمورة، حيث كان والـــده يعمل بالحجامة فى إحدى قـــرى مدينة الأنبار العراقية، كما أنه كان دميم الوجه قبيح المنظر- كما تصفه كتب الســـيرة- مما دفعه للشـــعور بالضياع والانخراط فى جماعة المخنثين والإكثار من اللهو وشرب الخمر، إنه شاعرنا المشهور إسماعيل بن القاســـم العينى والذى لقب بأبو العتاهية.. للأسباب السابقة، ولأنه تغـــزل فى جاريـــة من جوارى زوجة الخليفة العباســـى (المهدى)، فأمر بضربه، مائة جلدة وسجنه، ولكنه لم يتوقف عن ذلك واستمر فى ذكرها فى أشعاره، مما دفع الخليفة المهدى لوصفه بالعته، فغلبت الصفة على اسمه!

وقد نبغ أبو العتاهية فى الشـــعر مبكرا، وكان يعمل مع شـــقيقه فى صناعة الفخار، وكان يأتيه الناس فينشـــدهم أشعاره، فيكتبونها على ما تكسر من الخزف وما يشترونه من الأوانى.

تقرب من الخليفة وحصل على عطاياه وعظم شأنه لدى الوزراء وكبار رجال الدولة، وكذلك فعل مع الخليفة الهادى مع اســـتمراره فى حياة اللهو وشرب الخمر، إلى أن تولى هارون الرشيد الخلافة، فإذا به يتحول إلى حياة الزهد والتقشـــف، ويحاول معه الرشيد العودة إلى مديحه، كما كان يفعل.. فيمتنع.. ويضيق الرشـــيد بامتناعه فيأمر بضربه وحبســـه،

فيستعطفه أبو العتاهيه بقوله:

إنما أنت رحمة وسلامة زادك الله غبطة وكرامة
لو توجعت لى فروحت عنى روح الله عنك يوم القيامة

فيرق له الرشيد ويأمر بإطلاق سراحه.. خاصة بعد أن مدحه بقوله:

وهارون ماء المزن يشفى به الصدى
إذا ما الصدى بالريق غصت حناجره
وأوسط بيت فى قريش لبيته
وأول عز فى قريش وآخره
إذا نكب الإسلام يوما بنكبة
فهارون من بين البرية ثائره

ولكن الطريف أن أبا العتاهية رغم زهده كان محبا للمال راغبا فيه كانزا له، وكان من قبل قد مدح الخليفة المهدى لهذا الغرض، حيث قال:

أتته الخلافة منقادة إليه تجرّر أذيالها
ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

ومن بعده مدح الخليفة هارون الرشيد فى كل المناسبات ومنها توليه العهد لبنيه الثلاثة:

وشد عرى الإسلام منه بفتية ثلاثة أملاك ولاة عهود

هـم خير أولاد، لهم خير والد له خيـر آباء مضـت وجـدود

وعندما تولى ابنه الأمين الحكم.. بادر فمدحه:

يا عمـود الإسلام خير عمود والذى صيغ من حياء وجود
إن يومـــا أراك فيـه ليـوم طلعت شمسه بسعد السعـود

وعندمـا انتصر المأمون على الأمين.. وتـولى هو الخلافة.. بادر أيضا بمدحه:

لخيـر إمام قام من خير عنصر وأفضـل راق فـوق أعـواد منبر
ووارث علم الأوليـن وفخرهـم مـن الملـك المأمون من أم جعفر

ولم يكن أبو العتاهية هجاء، ولكن عندما يرمى أحد خصومه بنباله، كانت تتحول أشعاره إلى أمثال فتتردد على ألسنة الناس، ومنها- مثلا- ما قال فى أحد معاصريه:

تعالـى الله يا سلـم بـن عمـرو أذل الحـرص أعنـاق الرجـال

وأيضـا ما قالـه فى كاتب الخليفة المأمون عندمـا حاول مقابلته ولم يتمكن من ذلك..

متـى يظفـر الغادى إليك بحاجة ونصفـك محجـوب ونصفك نائم

لقـد تحولـت حياة أبو العتاهية.. تحولا تاما مـن الغزل والخمر إلى الزهد والتقشف، وظل طويلا يندم على ما فعله.. ويستعد لما هو آت:

نعـى لك ظـل الشباب المشيب ونادتـك باسـم سـواك الخطوب

فكن مستعدا لداعى المنون فكل الذى هو آت قريب
وقبلك داوى المريض الطبيب فعاش المريض ومات الطبيب

وكثرت مواعظه ونصائحه للناس من أن هناك بعثا وحسابا.. مثل قوله:

فلو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت غاية كل حى
ولكنا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شىء

كما أكثر من الأدعية وطلب المغفرة والعفو من الله على ما ارتكبه من ذنوب..

إلهى لا تعذبنى فإنى مقر بالذى قد كان منى
ومالى حيلة إلا رجائى لعفوك إن عفوت وحسن ظنى

وكذلك مخاطبته للزمن الذى يفنى البشر قبل أن تتحقق أمانيهم، والناس لا تعلم أن كل شىء مقدر سلفا.. يتساوى فى ذلك العبد والملك:

نصبت لنا دون التفكر يا دنيا
أمانى يفنى العمر من قبل أن تفنى
لكل امرئ فيما قضى الله حظه
من الأمر فيها يستوى العبد والمولى

ونختم ببعض الأبيات الجميلة المعبرة والتى نرددها جميعا بعد أن تتغير أحوالنا وتتبدل أوضاعنا.. وكما قال شاعرنا المعروف:

بكيت على الشباب بدمع عينى فلم يغـــن البكـاء ولا النحيـب
فيا أسفا أسفت علـى شـــباب نعاه الشيـب والـرأس الخضيب
عريت مـن الشبـاب وكنت غضا كمـا يعـرى مـن الـورق القضيـب
فياليـت الشبـاب يعود يومـــا فأخبره بمـا فعـــل المشيـب

□□□

صريع الغوانى.. مسلم بن الوليد

هو مسلم بن الوليد من أبناء الأنصار الذين استوطنوا بالكوفة فى العراق فى العصر العباسى، كان شاعرا مجيدا ومداحا محسنا، أغلب شعره فى هارون الرشيد وابنه المأمون ووزيره الفضل بن سهل وقائد جيوشه يزيد بن مزيد الشيبانى، وقد تولى مسئولية البريد فى أصفهان، وكذلك أراضيها وحدائقها، لقب بصريع الغوانى لقوله:

وما العيش إلا أن تروح من الصبا
وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

وقيل أيضا إن رجلا سأله: لماذا تدعى صريع الغوانى، فأجابه بالأبيات الثلاث الآتية:

إن ورد الخدود والأعين النجل
وما فى الثغور من أقحوان
واسوداد الصدغين فى أوضح الخد
وما فى الصدور من رمان
تركتنى لدى الغوانى صريعا
فلهذا أدعى «صريع الغوانى»

على أية حال.. فقد أجمعت كتب السيرة وكذلك ديوانه أنه كان مولعا بالخمر يهوى مطاردة النساء ويفتنه جمالهن، حتى إن معاصريه

اتهمـوه بالكذب وأنه هو الذى يروج عن نفسـه تلك الصفة، فرد عليهم قائلا:

وقائـل: لست بالمحب ولو كنت محبـا هزلت مذ زمن
فقلت: روحى مكاتم جسدى حبى والحب فيـه مختزن

وقد يكون صحيحا أن الشـعراء يقولون مالا يفعلون، ولنا أسـوة فى شـاعر الغـزل الأول عمرو بـن أبى ربيعة، وكذلك مجنـون ليلى وكثير عـزة وذى الرمة وغيرهم، ولكنهم فى النهاية أمتعونا بشـعرهم.. الغزل الجميل.. وهكذا مسـلم (صريع الغوانى) لقد ترك لنا فى ديوانه أشعارا جميلة فى الغزل وفنون الشعر الأخرى، ومما قاله:

أحـب التـى صـدت وقالـت لتربها:
دعيه! الثريا منه أقـرب مـن وصلـى!
أماتت وأحيـت مهجتـى فهى عندها
معلقـة بيـن المواعيـد والمطـل

وهو هنا يقول إن دلال المرأة يثيره جدا، خاصة عندما تراهن صديقتها بأن نجوم السـماء أقرب إليه منى! ومع ذلـك فوصلها أو بعدها.. كان يحييه ويميته.. فقد أسرت قلبه عندها!

ولكنـى توقفت عند أحد أبياته فى غاية القوة.. وأراد به الفخر، إلا أنه استخدم لفظى «النكاح» و«الطلاق» وكأنه يتحدث عن امرأة، مع أنه يتحدث عن الحرب التى مهرها السيوف والحراب، ولا ينتهى منها إلا بعد أن يميت كل أعدائه!..حيث قال:

إذا مـا نكحنـا الحرب بالبيض والقنا
جعلنـــا المنايـا عنـد ذاك طلاقهـــا

هذا هو صريع الغوانى الذى يخاطب إحدى الجاريات وهى تسقيهم الخمر، حيث كأسها كشف عما به وأطلعتها على سره:

أديـرى علـى الـراح ساقيـة الخمـــر
ولا تسأليني واسألى الكأس عن أمرى
كأنـك بـى قـد أظهرت مضمر الحشا
لك الكأس، حتى أطلعتك على سرى

وهو أيضا الشاعر السياسى الذى يتشيع لقومه الأنصار ويهاجم قريشا التى ادعت أن لها الفضل فى كل شىء! فيقول:

أخبرونـــا مـــن الأعـــز أألنـ ـصـور حتى أعتلى أم الأنصار؟
فلنـــا العـز قبل عـــز «قريش» وقريش تلك الدهـور نجـــار

وإذا كان شاعرنا قد تفوق فى شعر الغزل والخمر، فإنه تميز أيضا فى المدح.. فقد قال فى قائد جيوش العباسيين:

وكـأن ليث الغاب فى إقدامه يومـا رأك تريـده فحكـاكـا
إن الرفاق أتتك تلتمس الغنـى والبحر لـو يجد السبيل أتاكا

أو كما قال.. فى أحد الولاة يمدحه لكرمه وكثرة عطاياه:

فتـى كـرم يعطـى وإن قـل ماله ولا يتقى طـــلابه بالتعلـــل

يقـول فيعلـو قوله وهـو منصـف ويمنـع محمودا، وإن يعط يجزل

ولقد كان مسـلم بن الوليد الملقب بصريع الغوانى هو أول من أدخل ما يسمى بالبديع فى الشعر، وسار على نهجه الشعراء، ومنهم أبو تمام والبحترى وغيرهما، ولذلك عندما توفاه الله، نعاه ابنه «خارجة» وكأنه كان طبيب الشعر والشعراء.. حيث قال:

تعطلـت الأشعـار من بعد مسلم وصارت دعاويها إلى كـل معجـم
إذا مرضـت أشعـار قـوم فإنـه يجيئك منها بالصحيـح المسلّـم

رحـم الله شـاعرنـا.. فقـد أمتعنـا بشعـره.. ومما قاله هذان البيتان اللذين يمثلان حكمة بالغة:

والدهـر يأخذ ما أعطى مكدَّر ما أصفى ومفسـد ما أهـوى له بيـد
فـلا يغرنـك مـن دهـر عطيتـه فليس يترك مـا أعطى على أحد

ونختم بتلك الأبيات الجميلة:

أنا المقـر بذنـب لسـت صاحبـه
إن كـان ذنب مـع الإقـرار مغتفرا
أحببت مـن حبهـا مـن كان يشبهها
حى لقد صرت أهوى الشمس والقمرا
وما ضمنـت لهـا سـرا فأكتمـه
إلا حفظـت عليـه الدمـع والبصرا

ابن المعتز.. الشاعر والخليفة!

هــو الأديب والشــاعر عبد الله بن المعتز بن المتــوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد.. الخليفة العباسى المشهور، ولد فى بداية العصر العباسى الثانــى عندما ســيطر الأتراك علــى مقاليد الحكم بعــد نكبة البرامكة، تعرض لعدة محن فى شــبابه، بدأت بقتل جده المتوكل، ثم أبيه المعتز بــالله، ثم نفيه وجدته وأبناء عمومته من بغداد عاصمة الخلافة إلى مكة بعد أن جردوا من أموالهم.

وعندمــا تولى عمــه المعتمد الخلافة أمر بعودته ومن معه إلى ســامراء عاصمة الخلافة الجديدة، بعد أن استقرت الأوضاع على يد أخيه الموفق الذى كان من أحزم بنى العباســى وأنبغهم فى إدارة شــئون السياســة والحــرب، وهو الذى قضى على ثــورة الزنج وثورة الصفاريين ضد حكم أخيه المعتمد.

وطوال تلك الفترة كانت جدة شــاعرنا هى المعنية بتربيته، فأحضرت لــه المعلمين فى الفقه والحديــث والأدب، وانكب عبد الله على الدروس وكان ذكيا رقيق المشاعر، فانطلق الشعر على لسانه وهو فى التاسعة وهو ما لفت انتباه شاعر كبير مثل البحترى فيمدحه قائلا:

أبا العبــاس بــرزت على قومك آدابــا وأخلاقــا وتبريــــزا
فأما حلبة الشعر فتستولى على السبــق بهــا فرضــا وتمييــزا

ويتقرب شاعرنا من عمه المعتمد ويروى أشعاره، كما يمدح عمه الموفق لقضائه على ثورة الزنج.. بقوله:

ولما طغى أمر الدعى رميته بعزم يرد السيف وهو كليل
وأعلمته كيف التصافح بالقنا وكيف تروى البيض وهى محول

أى كيف تروى السيوف وهى مجدبة من دماء الأعداء، ويتوفى عمه الموفق فيخلفه ابنه المعتضد وكان مهيبا شديد البأس مثل أبيه ويسلمه عمه المعتمد مقاليد الدولة، ثم يتوفى المعتمد فيصبح المعتضد هو الخليفة ويعود إلى بغداد، ويصبح شاعرنا من ندمائه وتقبل الدنيا عليه إلى حين!

وقد اشتهر ابن المعتز بأنه كان أديبا وشاعرا وناقدا، واسع الثقافة بصيرا بصنعة الألحان، كما كان راويا وإخباريا ألّف العديد من الكتب منها: البديع، وأشعار الملوك، وطبقات الشعراء، والجوارح والصيد، ثم كتاب الجامع فى الغناء.. فضلا عن ديوان شعر فى فنون المدح والفخر والوصف والصيد والقليل من الهجاء.

ومن أشعاره الجميلة:

قالوا اعتللت، فسل عنى وعن خبرى
ألم أبت باكيا، لا أطعم الغمضا
قولوا لمكتوم: يا سمعى ويا بصرى
علّمتُ جسمى من أجفانك المرضا

وكان يكثر من استخدام الصور والتشبيهات فجاء شعره بديعا رائعا مثل قوله يغازل مليحة مكتملة بالسحر فى عينها حور:

كم فيهم من مليح الوجه مكتمل
بالسحر يطبق جفنيه على حور
لاحظته بالهوى حتى استفاء له
طوعا وأسلفنى الميعاد بالنظر
وجاءنى فى قميص الليل مستترًا
يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
فقمت أفرش خدى فى الطريق له
ذلا وأسحب أذيالى على الأثر
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا
مثل القلامة قد قدت من الظفر
وكان ما كان مما لست أذكره
فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وكما كان شاعرنا رقيقا بديعا فى غزله، كان أيضا بسيطا سلسا فى فخره بجده العباسى وأعمامه وآبائه فى شجاعتهم وبلاغتهم:

إنا لننتاب العداة وإن نأوا ونهز أحشاء البلاد جميعا
ونقول فوق أسرة ومنابر عجبا من القول المصيب بديعا
قوم إذا غضبوا على أعدائهم جروا الحديد أزجة ودروعا
وكأن أيدينا تنفر عنهم طيرا على الأبدان كن وقوعا

وقد حزن شاعرنا كثيرا على وفاة ابن عمه وصديقه الخليفة المعتضد

ورثاه بقصيدة تشعر وأنت تقرؤها وكأن قلبه ينفطر ودموعه تنهمر، حيث يخاطبه وهو فى قبره بمنطقة الطاهرية غرب بغداد بقوله:

يا ساكن القبر فى غبراء مظلمة
بالطاهرية مقصى الدار منفردا
أين الجيوش التى قد كنت تسحبها
أين الكنوز التى لم تحصها عددا
أين السرير الذى قد كنت تملؤه
مهابة، من رأته عينه ارتعدا
أين الرماح التى غذيتها مهجا
مذ مت ما وردت قلبا ولا كبدا

وعلى الرغم من ذلك إلا أنه وقع فى الفخ ولم يستطع مقاومة بريق السلطة، وهو الأديب الشاعر.. فجر على نفسه البلاء، فقد توفى المعتضد وكان ابنه المكتفى غائبا، فقام مؤنس رئيس الحرس بجمع وجوه العباسيين لأخذ البيعة له، ثم أفرج عنهم ومنهم ابن المعتز، ثم يتوفى المكتفى بعدها بسنوات قليلة ويخلفه ابنه المقتدر وسنه لا يتجاوز الثالثة عشرة، فاعترض عليه الناس بحجة أنه لم يبلغ الحلم فكيف يتولى الخلافة، ويقودهم محمد الكاتب الذى تمكن من خلع المقتدر وتولية ابن المعتز مكانه، فيرد الأخير الجميل له ويقلده الوزارة، ولم يستغرق الأمر سوى ليلة واحدة ونصف نهار، حيث تمكن مؤنس رئيس الحرس من تجديد البيعة للمقتدر والقبض على ابن المعتز بعد أن حاول الهرب..

وقتله والتمثيل بجثته!

قتل ابن المعتز ولم يتعظ لما حدث لجده ولأبيه.. وينعاه معاصروه من الأدباء والشعراء.. ومنهم على بن بسام، بقوله:

لله درك مـــن ميـــت بمضيعـــة ناهيك فى العلم والآداب والحسب
ما فيـــه لـــــو ولا ليت فتنقصه وإنمـــا أدركتـــه حرفـــة الأدب

مات شـاعرنا بعد أن عرض نفســه إلى مالا طاقة له به، ولكنه ترك ديوانا كبيرا من الشعر، نقتبس منه هذه الأبيات الجميلة:

أما ترى الدهر لا تفنى عجائبه والدهـــر يمـزج معسور بميسور
وليس للهم إلا شـرب صافيـــة كأنهـا دمعـة مـن عين مهجور

ونختم بتلك الحكمة البالغة: (خليك مع الله)، حيث يقول:

دع الناس، قد طال ما أتعبوك ورد إلـــى الله وجـــه الأمـل
ولا تطلـب الـــرزق مـن طالبيه واطلبه ممـن بـــه قـــد كفـــل

□□□

ابن الرومى.. الشاعر المتشائم

هو على بن العباس بن جريج، يونانى الأصل فارسى الأم، كان أحد كبار الشعراء فى القرن الثالث الهجرى، حيث العصر العباسى الثانى.

وصف بأنه كان ضئيلا نحيفا دميم الوجه، أصلع الرأس حتى إنه اضطر ألا يخلع العمامة أبدا، فقد كان الصلع يشمل معظم رأسه وهو ما كان كثير التندر به.. وقد قال فى ذلك:

شغفت بالخرد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشهد فيها مساجد الجمع

تعرض طوال حياته للكثير من الكوارث والنكبات، فجاءت أشعاره انعكاسا لما مر به، فقد ترك له والده ضياعا كثيرة باع منها الكثير بسبب إسرافه فى اللهو وشرب الخمر، واحترق البعض منها، كما أتى الجراد على زرعه، واغتصبت داره.. واختطف الموت عائلته.. أمه ثم ابنه، ثم زوجته الثانية وأولاده منها.

تلك الأحداث أصابته بالتشاؤم والتطيُّر، وانعزل وعاش مرهوبا خائفا، وتجنبه الخلفاء والوزراء إلا قليلا منهم بسبب سرعة تقلب مزاجه وحدة طباعه.

ومع ذلك كان شاعرا مجيدا برع فى الوصف والهجاء والرثاء، وكانت أشعاره مبدعة فى الحركة والتشخيص والوصف، واعتنى بالموسيقى والقافية.

ومن طرائف ما يروى عنه.. أن معاصريه عرفوا شدة تطيّره، فكانوا يقتصون لأنفسهم من هجائه لهم بأن يقرعوا عليه بابه فى الصباح، فيسأل من الطارق؟.. فيتلقى إجابة مثل: مُرَّة بن حنظلة، أو حرب بن مقاتل، وغير ذلك من الأسماء التى تدفعه للتشاؤم، فلا يفتح بابه ولا يخرج من منزله.

وكانت بينه وبين الشاعر الكبير البحترى منافسة ممتدة وكانا يتبادلان الهجاء.. ومما قاله فى البحترى:

البحترى ذنوب الوجه تعرفه
وما رأينا ذنوب الوجه ذا أدب
أنى يقول من الأقوال أثقبها
من راح يحمل وجها سابغ الذنب

وقد حاول الاتصال بالخلفاء العباسيين والتقرب منهم ومدحهم، كما فعل مع الخليفة المعتضد، حيث هنأه بزواجه من الأميرة المصرية قطر الندى بنت خمارويه:

يا سيد العرب الذى زفت له
باليمن والبركات سيدة العجم
أسعد بها كسعودها بك إنها
ظفرت بما فوق المطالب والهمم
ظفرت بملء ناظريها بهجة
وضميرها نبلا وكفيها كرم

شمس الضحى زفت إلى بدر الدجى
فتكشفت بهما عن الدنيا الظّلم

ولكن تشيعه وما اشتهر عنه من سوء الطبع وحدة المزاج لم يقربه من قصر الخليفة، ولذلك لم يكن يتردد فى مهاجمة الجميع بما فيهم الخلفاء:

قد بلينا فى دهرنا بملوك أدباء عَلِمتُهم شعراء
إن أجدنا فى مدحهم حسدونا فحرمنا منهم ثواب الثناء
أو أسأنا فى مدحهم أنَّبونا وهجوا شعرنا أشد الهجاء

لقد كان ابن الرومى شاعرا غريب الأطوار يمدح فيحسن مديحه، وإذا تغيرت الظروف أو تأخرت العطايا انقلب هاجيا شديد الهجاء، وها هو ذا يمدح آل وهب أصدقاءه القدامى حين تولوا الوزارة، وخاصة أبو القاسم بن عبيد الله بن سليمان.. والذى كان يعطف على الشاعر قبل تولى أبيه الوزارة.. فيقول فيه مالم يقُله شاعر فى ممدوح آخر.. حيث جمع فيه كل المحاسن فى قطعة شعرية جميلة:

إذا أبو قاسم جادت يداه لنا
لم يحمد الأجودان: البحر والمطر
وإن مضى رأيه أو حد عزمته
تأخر الماضيان: السيف والقدر
وإن أضاءت لنا أضواء غرته
تضاءل النيّران: الشمس والقمر

ينال بالظن ما يعيى العيـان بـه
والشـاهدان عليـه: العين والأثر

ولكن الوزير عبد الله وابنه القاسـم يملان من طلباته ولا يسـتجيبان لإلحاحه، فيشد عليهم قوسه ويرميهم بسهامه:

تسميتـم فينـا ملوكـا وأنتـم عبيـد لما تحـوى بطـون المزاود
لكم نعمة أضحت بضيق صدوركم مبـرأة مـن كـل مثـن وحامـد
فإن هي زالـت عنكـم فزوالهـا يجـدد إنعامـا على كل ماجد

لقد برع شـاعرنا فى الهجاء وخاصة فى اسـتغلال العيوب الجسدية فيمن يهجوهم، فقد كان يصور العيوب الجسـدية تصويرا مضحكا، كما يفعل رسـامو الكاريكاتير، وقد كان يسكن أمامه جار أحدب كان يتطيَّر منـه كثيرا.. فهجاه مصورا عورته.. كمـن يتقى صفعة بتجميع قفاه إلى ظهره:

قصرت أخادعـه وطـال قذاله فكأنه متربـص أن يصفعـا
وكأنمـا صفعـت قفاه مـرة وأحسـن ثانيـة لهـا فتجمعا

هـذا مع أنه يمكنـه أن يقول النقيض تماما عندما يرضى عن أحد أو يطمع فى جائزته.. حيث وصف أحد معاصريه باللوذعى والألمعى وهى معان جديدة فى المديح:

لوذعـى لـه فـؤاد ذكـى ماله فى ذكائـه من ضريب
ألمعـى يـرى بـأول ظن آخـر الأمـر من وراء مغيب

لقد كان ابن الرومى يعلم تماما أنه يكذب.. مثله مثل بقية الشعراء، حيث يقولون مالا يفعلون.. بل يقولون أيضا ما لا يفعل الأمراء، وقد عبَّر عن ذلك.. مستوحيا ما وصف القرآن به الشعراء:

يقولـون مـالا يفعلـون بسبـة مـن الله مسبـوب بها الشعراء
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون مـالا يفعـل الأمـراء

لقد كان ابن الرومى سـيىء الحظ.. ضحية ظروفه ولكنه جنى على نفسـه بهجائه الشـديد لأصدقائه قبل أعدائه، فقد روى أن القاسـم بن عبيد الله بن وهب صديقه القديم أطعمه حلوى مسمومة، فلما أكلها شعر بالمغص فقام يجرى فسـأله الوزير: أين تذهب فأجابه إلى الموضع الذى أرسلتنى إليه، فقال له: سلم على والدى، فقال له: ما طريقى إلى النار!

□□□

أبو الطيب..المتنبى [١ - ٤]

أعتقد أنه لا يذكر الشعر العربى إلا ويتبادر إلى الذهن مباشرة هذا الشاعر العملاق أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفى المشهور بالمتنبى، فهو شاعر من أخمص قدميه حتى شعر رأسه، ويتميز شعره بالفخر الشخصى والحكمة والمدح فى الأمراء، وقد ولد أبو الطيب فى الكوفة بالعراق وعرف من صغره برجاحة العقل وشدة الذكاء، وكان سريع التعلم ممن سبقوه، قوى الملاحظة واسع الاستيعاب، حتى إنه فى صباه لم يكن يسأل عن شئ إلا استشهد له بكلام العرب من النظم والنثر.

وقد سمى أبو الطيب بالمتنبى لأنه ادعى النبوة فى منطقة السماوة بالكوفة، ولما ذاع أمره وفشا سره خرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأخشيد، فأسره وتحفظ عليه ولم يفك اعتقاله إلا بعد أن استتاب ورجع عن ادعائه الكاذب.

ويقع ديوان المتنبى فى أكثر من ٥٧٥ صفحة من القطع الكبير، وسوف نتناوله على حلقات، كل منها تمثل مرحلة عمرية وفنية، الأولى للبدايات، والثانية عندما التحق بالأمير سيف الدولة الحمدانى.. وتفرغ له مادحا ومسجلا لانتصاراته وحياته بصفة عامة، والثالثة عندما خرج مغاضبا إلى مصر ليلحق بحاكمها كافور الأخشيدى.. والذى لم ينل منه ما كان يتوقعه، فهاجمه بهجاء لاذع، ثم وفاته مقتولا نتيجة لغروره وادعائه البطولة على غير الحقيقة!

فمشكلة المتنبى أنه كان شديد الاعتزاز بنفسه.. ومما قاله فى هذا:

أى محـــل أرتقـــى أى عظيـــم أتقـــى
وكل مـا قـد خلق اللـ ـه ومالـــم يخلـــق
محتقـــر فـــى همتـى كشعـــرة فـــى مفرقـــى

فهو لا يحســب حساب أحد مهما كان قدره، ولا يطمع فى الوصول إلى منصب، لأن كل ما خلق الله أو سـيخلق ليس إلا مجرد شـعرة فى رأسه!

ويقول أيضا فى موضوع آخر:

لا بقومـى شرفت بل شـرفوا بى وبنفســى فخـرت لا بجـــدودى

ثم نجده فى قصيدة أخرى يقول:

أنا أبن اللقـاء أنـا ابـن السخاء أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان
أنا ابن الفيافى أنا ابن القوافـى أنا ابن السروج أنـا ابن الرعـان
يسـابق سيفـى منايـا العبـاد إليهـم كأنهمـا فـى رهـــان

وهناك أيضا الأبيات الشهيرة والتى كانت سببا فى مقتله كما سنوضح فى الحلقات التالية.. حيث يقول:

سيعلم الجمـع ممن ضـم مجلسنا بأننى خير مـن تسعـى بـه قـدم
أنا الذى نظـر الأعمـى إلى أدبـى وأسمعت كلماتـى مـن بـه صمـم
الخيـل والليـل والبيـداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ولم يكن المتنبى يكتف بالادعاء فقط.. بل كان يصل تهوره إلى درجة التحدى.. وها هو يقول لأحد لائميه على ادعاءاته:

أمثلى تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان إلى شخصا لخضب شعر مفرقه حسامى
وما بلغت مشيئتها الليالى ولا سارت وفى يدها زمامى
إذا امتلأت عيون الخيل منى فويل فى التيقظ والمنام

كان ما تقدم عن أبى الطيب الإنسان المتعالى الذى يعتد بنفسه.. أما أبو الطيب الشاعر فحدث ولا حرج.. فما أكثر الأبيات التى لا تملك إزاءها سوى الاندهاش على تلك القدرة والصنعة وجمال الألفاظ وجمال المعانى، اقرأ معى تلك الأبيات:

أرق على أرق ومثلى يأرق
وجوى يزيد وعبرة تترقرق
جهد الصبابة أن تكون كما أرى
عين مسهدة وقلب يخفق
جربت من نار الهوى ما تنطفى
نار الغضا وتكل عما يحرق
وعزلت أهل العشق حتى ذقته
فعجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتهم وعرفت ذنبى أننى
عيرتهم فلقيت فيه ما لقوا

فهو يصف نفسه عندما يهوى: النوم يخاصمه وشوقه يزيد ودمعه يسيل، وعينه لا تغمض وقلبه يخفق، ونار الهوى أشد من نار شجر

الغضا الذى يبقى جمره زمنا طويلا لا ينطفئ وقد كان يلوم أهل العشق، والآن وبعد أن جرب فإنه يتساءل: كيف يموت من لا يجرب الحب وينكوى بنار العشق؟!

ثم اقرأ هذه الصورة الجميلة عن كتمان الحب والذى لم يستوعبه جسده فزاد وفاض وتسبب فى علته!

كتمت حبك حتى منك تكرمة ثم استوى فيه إسرارى وإعلانى
كأنه زاد حتى فاض عن جسدى فصار سقمى به فى جسم كتمانى

أو عندما قبل حبيبته..وجد ماء رضا بها يحيى الميت.. بينما هى تمسح دموعها على خدها الوردى بأطراف أناملها الناعمة:

قبلتها ودموعى مزج أدمعها وقبلتنى على خوف فما لفم
قد ذقت ماء حياة من مقبلها لو صاب تربا لأحيا سالف الأمم
ترنو إلى بعين الظبى مجهشة وتمسح الطل فوق الورد بالعنم

أما المدح فلا أعتقد أن أحدًا استطاع أن يجاريه فى ذلك:

لو كنت بحرا لم يكن لك ساحل أو كنت غيثا ضاق عنك اللوحُ
وخشيت منك على البلاد وأهلها ما كان أنذر قوم نوحٍ نوحُ

أنت كالطوفان الذى أنذر نوح به قومه،لأنك لو كنت بحرًا فليس لك ساحل، ولو كنت مطرا ما ضاق بك الجو!

وفى قصيدة أخرى يمدح بها أحد الأمراء يصف قوته بالأسد التى فرائسها الأسود، أما الأمير فهو كالبدر والبحر والشمس:

أســـد فرائسهـــا الأســـود يقودهـــا
أســـد تصيـــر له الأســـود ثعالبـــا
كالبدر من حيـــث ألتفـــت رأيتـــه
يهـــدى إلى عينيـــك نـــورا ثاقبـــا
كالبحـــر يقـــذف للغريـــب جواهـــرا
جـــودا ويبعـــث للبعيـــد سحائبـــا
كالشمس فى كبـــد السمـــاء وضوؤهـــا
يغشـــى البـــلاد مشارقـــا ومغاربـــا

□□□

٢- المتنبى.. شاعر الأمير [٢ - ٤]

جمع الحب المتبادل بين الشاعر أبو الطيب المتنبى والأمير سيف الدولة الحمدانى، وعلى كثرة قراءتى لسير الشعراء القدامى ودواوينهم لم أجد شاعرا يلتصق بخليفه أو أمير كما فعل المتنبى الذى تحول إلى مؤرخ لسيف الدولة يسجل حركاته وسكناته.. وانتصاراته وهزائمه طوال حروبه مع الروم، فلم تحل مناسبة أيا كانت إلا سجلها المتنبى ليس ببيت أو ببيتين كما كان يفعل الشعراء فى عصره أو فيما قبله، ولكن بقصيدة طويلة تمتد أبياتها أحيانا إلى أكثر من ستين بيتا.

وليس ذلك ذما فى المتنبى.. فهو أحد أعمدة الشعر العربى كما أنه ليس عيبا فى سيف الدولة.. فقد كان هذا حال الخلفاء والأمراء وقتها، كما أنه تحمل و عائلته وحدهم عبء الدفاع عن تخوم وولايات الخلافة الإسلامية فى العصر العباسى.

ولكنى أسجل انطباعى بعد قراءتى المتأنية لديوان هذا الشاعر ذى القامة العالية فى الشعر.. والتى تحولت أبياته إلى حكم وأمثال يرددها الجميع منذ أن قالها وحتى الآن!

وقد وقفت كثيرا عند أحد الأبيات الذى يصف فيها حالة جنود الروم بعد أن هزمهم جيش سيف الدولة الحمدانى.. حيث يقول:

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شىء ظنه رجلا

أما سيف الدولة نفسه.. فقد قال فيه:

حلو خلائقـــه شـــوس حقائقـــه
تحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره
تضيـق عـن جيشـه الدنيا ولو رحبت
كصـدره لـم تبـــن فيهـا عساكـــره

كمـا وصفه بأنه العين الحارسـة للخلافـة، وهـو درة التاج وختم الخلافة.. وهالك الأعداء.. وجامع الغنائم:

إن الخليفـة لـم يُسَمِّـك سيفهـا حتـى بـلاك فكنت عين الصارم
فإذا تتـوج كنـت درة تاجـه وإذا تختـم كنـت فـص الخاتـم
وإذا انتضـاك على العدا فى معرك هلكـوا وضاقـت كفـه بالقائـم

أو يقول:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتـى علـى قـدر الكرام المكـارم
وتعظم فى عين الصغيـر صغارهـا وتصغر فى عيـن العظيـم العظائم

وعلى الرغم من عمق الصداقة بين الشاعر والأمير والتى كان يعلم بها الجميع، فإنه كثيرا ما تعرض المتنبى للوشاية لدى الأمير.. وعندما كان يعلم بذلك.. كان يسارع بالتوضيح!

أأنطـق فيـك هجرا بعد علمى بأنك خيـر مـن تحـت السماء
وهبنـى قلت: هذا الصبح ليل أيعمـى العالمـون عـن الضياء؟

ولم يكـن شـاعرنا يكتفى بالرد والتوضيح واسـتغلال المناسـبة لمدح

الأمير، ولكنه كان أيضا يلقن من تجرأ عليه درسا لا ينساه!

مازلت أعرفه قردا بلا ذنب خلوا من البأس مملوءا من النزق
كريشة فى مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

أو يعيد الكرة مرة أخرى.. لدفع الظلم عن نفسه والإشادة بالأمير:

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل
وأما وحقك وهو غاية مقسم للحق أنت وما سواك الباطل

وبالطبع لم يكن المدح مقصورا على الأمير وحده.. بل كان يمتد لأشقائه وشقيقاته.. وهذه بعض أبيات من قصيدة طويلة يرثى فيها والدته بعد دفنها:

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيبا ولا التذكير فخر للهلال

وأحيانا كان ينتصر الروم على جيوش الأمير، فيبادر المتنبى بالتهوين من هذا الانتصار.. وها هو ذا يخاطب قائد الروم معللا أسباب الهزيمة:

قل للدمستق إن المسلمين لكم
خانوا الأمير فجازاهم بما صنعوا
لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رمق
فليس يأكل إلا الميتة الضبع

وقد مرض سيف الدولة.. وذهب المتنبى لزيارته.. فارتجل الأبيات التالية:

إذا اعتـل سيف الدولة اعتلت الأرض
ومن فوقهـا والبـأس والكـرم المحـض
شفـاك الـذى يشفـى بجـودك خلقه
فإنك بحـر كـل بحـر لـه بعـض

وفى زيارة أخرى استغرب المتنبى أن يمرض الأمير فهو الذى يداوى العلل وهو المغيث لكل مصاب:

وكيـف تعـلك الدنيـا بشـىء وأنـت لعلـة الدنيـا طبيـب
وكيـف تنوبـك الشكوى بداء وأنـت المستغـاث لمـا ينـوب

وبعد ما شفى الأمير واستعاد عافيته.. قال المتنبى:

المجـد عوفـى إذ عوفيـت والكرم وزال عنـك إلـى أعدائـك الألـم
وما أخصـك فـى بـرء بتهنئـة إذا سلمـت فكـل الناس قد سلموا

ولكـن ألطف ما قيل فى هذا المجـال عندما أذن المؤذن وكان الأمير بيده كأس من الخمر.. فوضعه جانبا احتراما.. فارتجل المتنبى الأبيات التالية:

ألا أذن فمـا ذكـرت ناسى ولا لينت قلبـا وهـو قاس
ولا شغل الأميـر عن المعالى ولا عـن حق خالقه بكاس

□□□

٣- كافور.. المتنبى..المدح والهجاء [٣ - ٤]

فى أحد المجالس التى كان يعقدها سيف الدولة كل ليلة ويحضرها جمع غفير من العلماء والشعراء، تصادف أن وقع خلاف بين المتنبى وابن خلويه، قام على أثره الأخير بالوثب على المتنبى وضرب وجهه بمفتاح كان بيده فشجه، ولم يتدخل سيف الدولة للدفاع عن صديقه الشاعر أو يطيب خاطره، فخرج المتنبى غاضبا من المجلس واتجه إلى دمشق وأقام فيها حتى وصلته دعوة من حاكم مصر وقتها كافور الإخشيدى فلباها وذهب إلى مصر ومدح كافور بعدة قصائد بعد أن منحه دارا وخلع عليه ملابس وحمل إليه آلافا من الدراهم.

وقد عرض فى أول قصائده فى مدح كافور بصديقه القديم سيف الدولة ووصفه بالغدار.. رغم عمق محبته له، حيث بدأ قصيدته بقوله:

حببتك قلبى قبل حبك من نأى وقد كان غدارا فكن أنت وافيا
فإن دموع العين غدر بربها إذا كن إثر الغادرين جواريا
ولكن بالفسطاط بحرا أزرته حياتى ونصحى والهوى والقوافيا

ثم يصفه بأبى المسك الذى كان ينتظر اليوم الذى يلقاه فيه، ولقبه بالأستاذ الكريم الشجاع ولماذا لا تبدل الملوك بياض وجهها بلون كافور الأسود:

كرم فى شجاعة وذكاء فى بهاء وقدرة فى وفاء

من لبيض الملوك أن تبدل اللـون بلـــون الأستـاذ والسحنـــاء

وزاد فـي مدحـه ووصفه بأبى كل طيب وليس المسـك وحده، وأنه شمس منيرة سوداء، وأنه الأكثر تجربة بين الملوك.. ووصل إلى ما وصل إليه وهمته لم تكل، وهو يدير الملك من مصر إلى عدن إلى العراق إلى الروم والنوبة!

ثم يقول فى قصيدة أخرى:

ومن مثـل كافـور إذا الخيل أحجمت
وكـان قليـلا مـن يقـول لهـا اقـدمـى
شـديد ثبـات الطـرف والنقـع واصل
إلـى لهـوات الفـارس المتلثـم
فلو لم تكن فى مصر ما سـرت نحوها
بقلـب المشـوق المستهـام المتيـم
رضيـت بمـا ترضـى بـه لى محبة
وقـدت إليـك النفـس قـود المسلـم
ومثـلك مـن كـان الـوسـيط فـؤاده
فكـلمـه عنـى ولـم أتكـلـم

ولم يكتف بذلك.. ولكنه دخل فى الموضوع مباشرة.. حيث خاطبه:

وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتـى بيـان عندهـا وخطاب
وما أنا بالباغى على الحب رشوة ضعيف هوى يبغى عليـه ثـواب

وما شئت إلا أن أدل عواذلى على أن رأيى فى هواك صواب
إذا نلت منك الود فالمال هين وكل الذى فوق التراب تراب

ولكن مشكلة المتنبى أنه قارن كافور بصديقه سيف الدولة، وشتان بين الاثنين، فلما لم يمنحه كافور ما كان يتوقعه منه.. غادر مصر وهجاه بعدة قصائد مشهورة أصبحت مضرب الأمثال منها تلك الأبيات التى يعايره فيها بشقوق فى كعب رجله، وكذلك شفتيه التى شبهها بشفتى البعير:

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا
وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا
وتعجبنى رجلاك فى النعل إننى
رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
ويذكرنى تخييط كعبك شقه
ومشيك فى ثوب من الزيت عاريا
فإن كنت لا خير أفدت فإننى
أفدت بلحظى مشرفيك الملاهيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة
ليضحك ربات الحداد البواكيا

فهو ليس راضيا عنه لتقصيره معه، ولا عن نفسه لقصدها إياه، فهو العبد الذى يؤتى به من بلاد بعيدة لتضحك عليه الثكالى، فقد قيل إن كافور كان عبدا لحجام بمصر فلما باعه اشتراه الإخشيد.

يقول أبو الطيب فيه هاجيا:

صار الخصى إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبد والعبد معبود
العبد ليس لحر صالح بأخ ... لو أنه فى ثياب الحر مولود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد
نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وما تفنى العناقيد
ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن ... يسىء بى فيه عبد وهو محمود

ولم يقتصر هجاء المتنبى لكافور حاكم مصر وحده، وإنما طال المصريين جميعا.. بل طال مصر نفسها.. ويصف ذلك بأنه عقاب من الله أن يولى عليهم كلبا مثله.. عبد قزم، وأن المصريين لايعلمون من الدين إلا حلق الشارب.. وهو ما أضحك الأمم منهم:

جاز الأولى ملكت كفاك قدرهم ... فعرفوا بك أن الكلب فوقهم
سادات كل أناس من نفوسه ... وسادة المسلمين الأعبد القزم
أغاية الدين أن تحفوا شواربكم ... يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

ثم يختم هجومه هاجيا الجميع:

وماذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطى من أهل السواد ... يدرس أنساب أهل الفلا
وأسود مشفره نصفه ... يقال له أنت بدر الدجى
فما كان ذلك مدحا له ... ولكنه كان هجو الورى
ومن جهلت نفسه قدره ... رأى غيره منه مالا يرى

جزاك الله يا أبا الطيب لم تقدر حسن الاستقبال وكرم الضيافة.. وسببت مصر والمصريين.

□□□.

٤- شاعر الحكمة.. الذى قتل نفسه![٤ - ٤]

كان أبو الطيب المتنبى يتميز بالعقل الراجح والذكاء الشديد، ولكنه كان مغرورا شديد الاعتزاز بنفسه، وهو ما عرضه للهلاك مرتين، وقد خابت الأولى.. بينما صابت الثانية، ويبدو أنه اعتقد أن ما يأتيه من الشعر.. كأنه وحى.. فأنشد يقول:

أنا رب الندى ورب القوافى وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

ثم ادعى النبوة.. وقبض عليه.. ولكنه استتاب وأخلى سبيله، ولكن ليست كل مرة تسلم الجرة، فبعد مغادرته مصر ذهب إلى بغداد ثم إلى بلاد فارس، وفى تلك الفترة قال قصيدة هجاء فى شخص يدعى ضبة بن يزيد العينى، وكانت والدته شقيقة لشخص متهور يدعى فاتك ابن أبى جهل الأسدى.. والذى علم بما قاله المتنبى فى ابن شقيقته فتربص به ينوى قتله، وأثناء عودة المتنبى من بلاد فارس إلى بغداد اتصل بصديق له يدعى أبى نصر الحلبى فأطلعه على ما ينويه فاتك ضده، ونصحه بأن يصحب معه من يحمونه طوال الطريق، ولكن المتنبى عاند وتكبر ورفض ذلك قائلا:

أنا والجراز فى عنقى، فما بى حاجة إلى مؤنس، ثم أضاف: والله لا أرضى أن يتحدث الناس بأننى سرت فى خفارة غير سيفى، وظل

صديقــه يحذره.. وهو يعقب: أبنجو الطير تخوفنى.. ومن عبيد العصى تخاف علىّ؟ معاذ الله أن أشــغل فكرى بما ذكرت اسمه لحظة واحدة، فقــال له أبو النصر: قل إن شــاء الله، فــرد المتنبى: هى كلمة مقولة لا تدفع مقضيا ولا تستجلب آتيا!

ثم ركب وسار فى طريقه ولقيه فاتك فاقتتلوا، وحاول المتنبى الهرب، فنادى عليه غلامه: أتهرب وتتركنا وأنت القائل:

الخيــل والليــل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

«فعاد المتنبى للقتال.. حتى قتل مع ولده محسد وغلامه مفلح فى ٢٨ رمضان عام ٣٥٤ هـ (٩٦٥م).

تلــك قصة المتنبى الذى عرف بأنه أشــعر شــعراء العرب.. فقد نظم الشــعر على جميع الحروف الهجائيــة، وتحولت أبياته إلى مأثورات.. وأمثــال وحكم يرددها كل من يعرف العربية.. بل لا يخلو مقال لكاتب أو قصة لأديب من الاستعانة بإحدى مقولات المتنبى.

فمن منا لا يردد عن العقل والجهل والشرف:

ذو العقــل يشقــى فــى النعيم بعقله
وأخو الجهالــة فــى الشقــاوة ينعــم
لا يسلم الشــرف الرفيــع مــن الأذى
حتى تــراق علــى جوانبـــه الــدم

واقرأ الحكمة الصادقة المعبرة.. فى قوله:

وما الحسن فى وجه الفتى شرف له
إذا لـم يكـن فـى فعلـه والخلائـــق
ومـا بلـد الإنسـان غيـر المواقـف
ولا أهلـه الأوفـون غيـر الأصـادق

أو عندما وصف عذاب الجسد بسبب فكر العقل:

وإذا كانـت النفـوس كبـارا تعبـت فى مرادهـا الأجسام
وكـذا تطلـع البـدور علينـا وكذا تفلـق البحـور العظـام

وعندما عبر عن معنى الآية الكريمة «وتلك الأيام نداولها بين الناس».. وأيضا الفرق بين الحب مع العقل.. والحب مع الجهل.. حين قال:

بذا قضت الأيـام ما بين أهلها مصائب قـوم عند قـوم فوائـد
وإن قليـل الحـب بالعقـل صالح وإن كثير الحب بالجهـل فاسد

وأيضا عن ثواب المعروف ومع من يكون؟ ولماذا؟

إذا أنـت أكرمـت الكريـم ملكتـه
وإن أنـت أكـرمت اللئيـم تمـردا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلـى
مضر كوضع السيف فى موضـع النـدى

ويحكـى أنه طلب منه أن يقول بيتا من الشـعر يتضمن ما يمكن من الحروف الهجائية.. فقال:

عش أبق اسم سد جد قد مر أنه أسرفه تسل
غظ أرم صب أحم أغز أسب رع زع دل أثن نل

ثم قال لمحدثه:

هذا دعاء لو سكت كفيته لأني سألت الله فيك وقد فعل

وكان المتنبى يقصد العيش والبقاء والسمو والسيادة وقيادة الجيوش، والجود، الأمر والنهى، والوفاء، وعش مسرورا، وفى مروءة، وسخاء، وقل ما ترغب، وغظ حسادك، وارم بكأسك من يكيدك، وأصب الهدف، واغز أعداءك، واسب أولادهم، وتحمل دية تباعك، واصرف أعداءك عن مرادهم، واثنهم عما يرغبون ونل منهم.

هكذا كان لشاعرنا القدير.. قدرة شعرية.. وحكمة بالغة ومعان عميقة.. وهو ما وصف نفسه به حيث قال:

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعرى ولا سمعت بسحرى بابل
لا تجسر الفصحاء تنشد ههنا بيتا ولكن الهزبر الباسل

أو كما قال.. واصفا نفسه أنه الأشعر على الإطلاق:

وما الدهر إلا من رواة قصائدى
إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا
وغنى به من لا يغنى مغردا

رحم الله المتنبى.. وأمتعنا الله بأشعاره.

أبو فراس الحمدانى.. الطموح القاتل

هذا الشاعر لم أستطع مقاومة الكتابة عنه، بعد أن قرأت سيرته وديوانه، إنه الأمير العربى الأصيل سليل قبيلة تغلب.. المعروفة بشهرة فرسانها وشعرائها ومنهم عمرو بن كلثوم الذى قتل الملك عمرو بن هند فى مقر حكمه!

هو أبو فراس بن أبى العلاء سعيد بن حمدان أمير الموصل وأمه كانت رومية حسناء أسرها أبوه فى إحدى غزواته ضد الروم، وقد قتل أبوه وعمره ثلاث سنوات فقط وتكفل عمه الأمير سيف الدولة الحمدانى أمير حلب برعايته وتدريبه حتى عينه أميرا وعمره ١٦ سنة على مقاطعتى «منبج وحران» وتوابعهما كما تولى أستاذه ابن خالويه تعليمه وتثقيفه وتحفيظه الشعر القديم كما تكفل بكتابة قصة حياته وحفظ أشعاره بعد مماته.

وقد كان شاعرنا أبو فراس «خليطا» من الفارس الشجاع المقدام الذى لا يهاب الموت، كما كان عزيز النفس يعتز بكرامته جدا، فضلا عن كونه شاعرا محبا رقيقا حين يتغزل فى محبوبته، فخورا حين يتذكر أمجاد قومه وحروبهم ضد الأعداء من الروم، حزينا مؤثرا عندما يعبر عن سنوات الأسر التى طالت ونسيان أهله له وعدم فديته غصبا أو عمدا.

ومن منا لم يردد مع سيدة الغناء العربى أم كلثوم «أراك عصى الدمع» والتى تكشف عن مدى حب الشاعر ووجده بمحبوبته ولكنه أيضا «لا

يذاع له سـر» فهو الأبى الشـامخ عزيز النفس المحافـظ على كرامته.. المعـروف لدى البدو والحضـر والأصدقاء والأعـداء.. فكيف تنكره تلك الفاتنة التى أحبها.. وهى عليمة من هو الأمير العاشق!

يقول أبو فراس:

أراك عصـى الدمـع شيمتـك الصـب
أما للهـوى نهـى عليـك ولا أمـرُ
نعـم أنـا مشتـاق وعنـدى لوعـة
ولكـن مثلى لا يـذاع لـه سـر
وفيـت وفـى بعـض الوفـاء مذلـة
لفاتنـة فـى الحـى شيمتهـا الغـدرُ
تسائلنـى: «مـن أنـت؟» وهـى علـيمـة
وهـل بفتـى مثلـى علـى حالـه نُكرُ؟
فقلت كما شاءت وشـاء لهـا الهـوى
قتيلـك! ..قالـت: أيهـم؟ فهم كثرُ
وقالت لقد أزرى بـك الدهـر بعدنـا
فقلـت معـاذ الله بـل أنـت لا الدهر
وأيقنـت أن لا عـز بعـدى لعاشـق
وأن يـدى ممـا علقـت بـه صفـر
فعـدت إلى حكـم الزمـان وحكمهـا
لهـا الذنـب لا تجـزى بـه ولى العذر

هذا هو الشاعر العاشق، أما الفارس الشجاع المقدام فاقرأ قوله:

وإنـــى لجّـــرار لكـــل كتيبـــــة
معـــودة أن لا يخـــل بهـــا النصر
وإنـــى لنـــزال بكـــل مخـــوفـــــة
كثيـــر إلـى نـــزّالها النظر الشزر
فأظمـأ حتـى ترتوى البيض والقنا
وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر

وعندما أدارت الدنيا له ظهرها وتجمع من حوله الأعداء وأوشك على الوقوع فى الأســر، نصحه أصحابه بالهرب، فرفض معلنا أنه لن يفعل ما يشـينه كما فعل عمر بن أبى ربيعة عندما تخفى فى زى النساء هربا من قوم كانوا يتربصون به:

وقال أصحابـى الفـــرار أو الردى؟
فقلـت: همـا أمران أحـــلاهما مر
ولكننـــى أمضـــى لما لا يعيبنـــى
وحسبك من أمريـن خيـرهما الأسـر
هـو المـوت فاختـر ما علا لك ذكره
فلم يمـت الإنســان ما حيى الذكر
ولا خيـر فـى دفع الردى بمذلـــة
كما ردها يومـــا بسوءتـــه عمـــر

واقرأ مواســاته لنفسه ولحمامة وقفت بشباك أسره.. ما هذا الجمال؟ وما كل هذا الشــعور بالكرامة وعزة النفس.. إنها أبيات قليلة.. ولكنها نالت شــهرة كبيرة بعــد أن غناها مطرب العراق الأشــهر المرحوم ناظم الغزالى:

أقول وقد ناحت بقربى حمامة ... أيا جارة هل تشعرين بحالى؟
أيا جارة ما أنصف الدهر بيننا ... تعالى أقاسمك الهمــوم تعالى
تعالى نرى روحا لدى ضعيفة ... تردد فى جسم يعذب بالى
أيضحك مأسور وتبكى طليقة ... ويسكت محزون، ويندب سالِ؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ... ولكن دمعى فى الحوادث غالِ

ولقد كانت مشــكلة شــاعرنا الفارس العاشــق هو الطموح المتعجل.. حيث كان يشعر أنه لم يحصل على ما يستحقه بعد كل ما بذله من دفاع عن قومه وبلاده ضد الأعداء.. وهو ما أفصح عنه صراحة عندما قال:

يصان مهرى لأمــر لا أبوح بــه ... والدرع والرمح والصمصامة الخزم

كما قال أيضا:

تطالبنى بيض الصــوارم والقنا ... بما وعدت جــدّى فىّ المخايل
ولكن دهــرا دافعتنــى صروفــه ... كما دافع الدين الغريم المماطل

وكان أبــو فراس قد أخذ أسـيرًا لدى الروم وبقى فى الأســر ســبع سنين.. كتب فيها أجمل اشعاره التى عرفت بالروميات.. وكان يلح فى أشــعاره على ابن عمه ســيف الدولة أن يفاديه.. لكنه لم يفعل إلا بعد

هذه السنوات الطويلة التى قضاها فى سجن خرشنة بالقسطنطينية، وعن حاله فى السجن يقول أبو فراس:

إن زرت خـرشنـة أسيـرًا فلكـم أحطـت بهـا مغيـرا
ولقـد رأيـت النـار تنتهب المنـــازل والقصـــورا
ولقد رأيـت السبـى يجلب نحـونـا حـــرا وحـــورا
تختار منها الغادة الحسناء والظبـــى الغـريـــرا

ويجد الروم فى أبى فراس صيدا ثمينا فيسـاومون به سـيف الدولة ويرسل أبو فراس بقصائده إلى عمه ومنها قوله:

دعوتـك للجفـن القريـح المسهّـد لـدى وللنـوم القـليـل المشردِ
ومـا ذاك بخـلا بالحيـاة وإنمـا لأول مبـــذول لأول مجتـــدِ
وما الأسر مما ضقت ذراعا بحمله وما الخطب مما أن أقوله له قـدى
دعوتك والأبـواب ترتـج بيننـا فكـن خيـر مدعـو وأكـرم منجدِ
فمثلـك مـن يدعـى لكـل عظيمـة ومثلـى مـن يفـدى بكـل مسوّدِ
أناديك لا أنى أخاف مـن الـردى ولا أرتجى تأخير يومى إلى غدى
فلا تتـرك الأعداء حولى ليفرحوا ولا تقطع التسـأل عنـى وتقعـدِ

وهـى قصيدة طويلة يفتخر فيها بنفسـه ويلح على ابن عمه بمفاداته لكن سـيف الدولة لم يعر له أذنا إلا بعد سنين طويلة.. خرج بعدها أبو فراس منهكا من سجنه.

فلولا وفاؤه لابن عمه الذى رباه وأحسن وفادته لاستولى على الحكم،

وهو ما حاوله فعلا بعد وفاة سيف الدولة، حيث دخل فى معارك عديدة مع ابنه.. ولكنه هزم وتوفى متأثرا بجروحه.. ولعل هذا الطموح الذى استشعره سيف الدولة تسبب فى تركه فى الأسر لدى الروم لأكثر من سبع سنوات!

لقد توفى أبو فراس بين يدى ابنته وهو يوصيها أن تحزن عليه وتنعيه وتتذكره:

أبنيتى لا تجزعى كل الأنام إلى ذهاب
نوحى على بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولى إذا ناديتنى وعييت عن رد الجواب
زين الشباب أبو فرا س لم يمتع بالشباب!

□□□

الحلاج.. الشاعر والمتصوف الزنديق!

هـذا الرجـل حير الجميع وكتبـت فيه وعنه العديـد من الأبحاث ورسـائل الدكتوراه، كما كتب عنه الكثير من الشـعراء المعاصرين منهم عبد الوهاب البياتى وأدونيس ونجيب سـرور وصلاح عبد الصبور الذى ألف فيه مسرحية شهيرة باسم «مأساة الحلاج»، إنه الحسين ابن منصور الشـهير بالحلاج نظرا لصنعة والده الذى كان يحلج القطن وينسـجه، ولد فى خراسـان وتتلمذ على يد العديد من المتصوفة مثل سـهل بن الله التسـترى والجنيد وغيرهم.. عاش فى بغداد ومنها سافر إلى بلاد فارس والهند وخراسان.. ووصف بأنه أحد رواد مذهب الزرادشتية والتى تقوم علـى مذهب التأثير الروحـى فى الدين والفلسـفة، وكان يؤمن بتوحد الخالق فى مخلوقاته، وكان يرى أن الأهم جوهر الإنسـان لا سـلوكه، والتصوف عنده لم يكن مسلكا فرديا وإنما جهاد فى سبيل إحقاق الحق.

وقد عاش الحلاج فى عصر الخليفة العباسى أبو الفضل جعفر الملقب بالمقتـدر بالله، الذى اتهمه بالزندقة ومـوالاة القرامطة وطلب من وزيره محاكمته.. فحكم عليه بالسـجن لمدة ثمانى سـنوات، ثم قضى بجلده ألف جلدة وتقطيع يديه ورجليه وقطع رأسه وحرق جسده وإلقاء رمادها فى نهر الفرات.

المهم أن أهل السـنة اتهموه بالكفر والزندقة، ولكن مازال لديه أتباع كثر فى الهند وخراسان وبعض البلاد الإسلامية الأخرى يؤمنون بأفكاره ويحتفلون بذكراه، فقد كان للرجل قدرة على الخداع البصرى (السـحر)

الذى تعلم فنونه فى الهند، حيث كان يمد يده فى الهواء ثم يستردها وقد امتلأت بالدراهم، وكان يسميها (دراهم القدرة) كما روى أنه كان يأتى بالفاكهة فى غير أوانها ويقرأ ما فى نفوس الناس.

ولكن مشكلته التى عجلت بنهايته وكانت سببا رئيسيا فى الحكم عليه بالقتل والصلب أنه أنكر ركنا أساسيا من أركان الدين، حيث دعى إلى إسقاط فريضة الحج والاستعاضة عنها بالدوران- وقت الحج- حول حجرة طاهرة فى البيت، والقيام ببعض أعمال الخير مثل إطعام الفقراء وتوزيع الأموال عليهم.

هذا عن حياته.. أما أشعاره فمن يقرأ ديوانه أو بعض المقطوعات الشعرية، فحدث ولا حرج عن ألغازه وزندقته وهلاوسه.. ومنها:

أنا أنت بلا شك فسبحانك سبحانى!
وتوحيدك توحيدى وعصيانك عصيانى
ولم أجلد يارب إذا قيل هو الزانى؟

فهو لا يعتقد بمعاقبة المخطئ، لأنه - واستغفر الله - كان يعتقد أنه والله شىء واحد.. طبقا لما يسمى بعقيدة الحلول..

مزجت روحك فى روحى كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شىء مسنى فإذا أنت أنا فى كل حال

هكذا وكأنه يشاهد الله فى ذاته.. ومرة أخرى يقول:

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنـــى أبصـــرته وإذا أبصـرتـــــه أبصرتنـــا

والغريب أنه كان أحيانا ما يجمح ويخالف ما يقوله مثل:

ما حيلة العبد والأقدار جارية عليه فى كل حال أيها الرائى؟
ألقاه فى اليم مكتوفا، وقال له إيـــاك إيـــاك أن تبتـــل بالماء!

فهو هنا يعتقد بالجبر أن الإنسان مسير وليس مخيرا.

ويقول العديد من المفسـرين والنقاد إن كثرة مجاهدة الحلاج لنفســه وأخذها بالشــدة وسفره المتعدد ودراســته للكثير من المذاهب والفلسفات الســائدة فى عصره.. جعلته يخرج عن المألوف ويخالف أساتذته الذين علموه التصوف، والذين ناقشــوه فيما يقول وحاولوا نصحه وإرشاده دون جدوى.. حيث يرى د. شــوقى ضيف أن دراســته للمســيحية ومعرفته بنظرية الناســوت واللاهــوت اللذين يؤلفان الطبيعة الثنائية للمســيح، جعله يعتقد باتحاد الناســوت وهو الروح الإنســانى فــى اللاهوت وهو الروح الإلهى، وبذلك يظهر الله بصورته فى الإنســان.. وهو ما قاله فى كتابه «الطواسين» حيث يقول:

سبحـــان مـــن أظهـر ناسوته ســرّ ســـــنا لاهوتـــه الثاقب
ثم بـــدا لخلقـــه ظاهـــــرا فى صورة الآكـــــل الشارب
حتى لقـــد عاينـــه خلقـــه كلحظة الحاجب بالحاجب!

والغريب أنه أحيانا ما يكتب شــعرا، وكأنه أفاق من سكرته، شعرا كله خشوع، وطاعة واستعطاف وندم وزهد مثل ما قال:

دنيـــا تخادعنـــى كـأ نى لست أعرف حالها
حظـر الإلـــه حرامهـــا وأنـا اجتنبـت حلالها
مـدت إلـىّ يمينهـــا فرددتهـــا وشمالهـــا
ورأيتهـــا محتاجـــة فوهبـت جملتهـا لهـا
ومتى عرفـت وصالهـــا حتى أخـــاف ملالها؟

بل صرح فى أبيات أخرى باسم «الله» سبحانه وهيام قلبه وانصراف همومه وراحة فكره بذكر الحروف التى يتكون منها اسم الخالق «الله»:

أحـرف أربع بها هام قلبـــى وتلاشت بهـا همومى وفكـرى
ألف تألف الخلائـق بالصفح ولام علـى الملامـــة تجـرى
ثم لام زيـادة فـــى المعانـى ثـم هـاء بهـــا أهيـم وأدرى

ومع ذلك تجده فى موضع آخر ينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة ويسقط ركنا من أركان الإسلام وهو فريضة الحج:

يا لائمـــى فـــى هـواه كـم تلـوم فلـو
عرفـــت منـــه الـذى عنيـت لـم تلم
للنـــاس حـــج ولـى حـــج إلـى سكنى
تهدى الأضاحى وأهدى مهجتى ودمى
تطـــوف بالبيـــت قـــوم لا بجارحـــة
بالله طافـــوا فأغنـــاهـم عـــن الحـــرم

ونختم بأجمل ما قاله الحلاج شعرا.. حيث حب الله لا يفارقه وذكره

لا يغيب، ومع ذلك فهو يستنكر ما يقوله الناس عنه.. من سفه وزندقة.. فمال الناس وماله.. لهم دينهم وله دينه!

والله ما طلعت شمس ولا غربت
إلا وحبك مقرون بأنفاسي
ولا خلوت إلى قوم أحدثهم
إلا وأنت حديثي بين جلاسي
ولا ذكرتك محزونا ولا فرحا
إلا وأنت بقلبي بين وسواسي
ولا همست بشرب الماء من عطش
إلا رأيت خيالا منك في الكاسي
ولو قدرت على الإتيان جئتكم
سعيا على الوجه أومشيا على الرأس
مالي وللناس كم يلحونني سفها
ديني لنفسي ودين الناس للناس

رحم الله أبو المغيث الحسين بن منصور (الحلاج) وغفر الله له!.

□□□

عمر الخيام.. عاشق النجوم

غـدٍ بظهـر الغيـب واليوم لى وكـم يخيـب الظن فى المقبل
ولسـت بالغافـل حتـى أرى جمـال دنيايـا ولا أجتلـى
أفـق خفيف الظل هذا السحر وهاتهـا صرفـا وناغ الوتر
فمـا أطـال النـوم عمرا ولا قصـر فـى الأعمار طول السهر

صاحب هذه الأبيات.. والتى ترجمها أحمد رامى وتغنت بها كوكب الشـرق أم كلثوم هو غيـاث الدين عمر أبو الفتح بن إبراهيم.. الشـهير بعمر الخيام كان مجموعة من الأشخاص.. فى شخص واحد.. فقد كان عالما بالتاريخ بارعا فى الطب خبيرا بالإلهيات.. عاشـقا للنجوم دارسا للفلـك.. له العديد من الكتب فى الفقـه والوجود والكون وصاحب أول تقويم لعيد النيروز الذى يعمل به فى فارس حتى الآن. ذاق الفقر.. ونعم بالثراء.. وظل فترة طويلة منسيا لا يذكره أحد.. إلى أن اكتشفت أشعاره والتى سميت «بالرباعيات» فأعطته شهرة فاقت ما قبله وظلمت ما بعده.

ولقـد أجمع كل من كتب عنه أنه كان نابغا منذ صغره.. مقبلا على التعلم بكل حماسـة.. متنقلا بين البلاد للبحث عن كل جديد فى كافة المجالات.. ولذلك جمع بين الشـىء وضده .. فقد حج البيت الحرام.. وكان متصوفـا فى بعض حالاتـه، ولكنه كان محبا للخمر.. متشـككا فـى جدوى الحياة عائبا علـى قصرها وكان دائما ما يقـول.. فى نثره وشعره: ما لنا نعيب القضاء وهو مسير بإرادة عالية، ولم خلقت وكيف

لا أستطيع الرحيل متى أردت وكيف نعاقب وقد كتب علينا فى لوح الغيب ما نقترف؟ ثم يعود لرشده ويطلب الرحمة والمغفرة للمذنبين طمعا فى كرم الله ولطفه، وسرعان ما يعود إلى تجرع الخمر فترجع إليه نفسه المتشائمة ويتساءل.. ما دامت الحياة بهذا القصر فعلام الألم ومئوانا التراب ومجلسنا على العشب الذى غذته أوصال الغابرين؟ وأكوابنا من الطين الذى اختلطت فيه رءوس الملوك بأقدام السوقة، ثم ينعى على الموت ويؤله أنه لم يعد أحد ممن ذهبوا فيخبر عن حال الراحلين!.

نعم لقد كان عمر الخيام مجموعة من التناقضات الغريبة.. عالمًا.. ومفكرًا.. وفليسوفًا.. ومتصوفا.. وخبيرا فى علم الفلك ودوران النجوم.. ثم شاعرا طافت شهرته الزمان وتغنى بها أشهر المطربين فى كل مكان.

ويقول عنه شاعرنا الراحل أحمد رامى والذى ترجم رباعياته من الفارسية إلى العربية.. لقد حار الأدباء فى فهم الخيام، فمنهم من عده مستهترا لا يعتقد بالبعث ومنهم من أنزله منزلة الصالحين راسخ اليقين، على أن الخيام كان جبريا يعتقد أن الإنسان تسيره قوة خافية لا يملك دفعها ولا تدع فرصة الاختيار بين النافع والضار ولذلك جاءت الرباعيات معبرة عن كل ذلك؛ فالخيام فيها تارة متفائلا وأخرى متشائمًا؛ ثم قدريًا ثم متصوفًا وأحيانا يميل إلى اليأس إلى حد السخرية من الحياة ومن كل شىء فى الوجود.

لبست ثوب العيش لم استشر ... وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عنى ولم ... أدرك لماذا جئت أين المفر
خلقتنى يا رب ماء وطين ... وصنعتنى ما شئت غرا وهين

فمـا احتيالى والذى قد جرى كتبتـــه يارب.. فوق الجبين؟

ثم نجده متصوفا قدريا.. مناشدا الله العفو والمغفرة:

يا مـن يحـار الفهم فى قدرتك وتطلب النفـس حمـى طاعتـك
أسكـــرنى الاثـــم ولكننـــى صحوت بالآمال فـى رحمتـك
يا عالم الأســرار علـــم اليقين وكاشـف الضـر عـن البائسين
يا قابـل الأعـــذار عدنـــا إلى ظلك.. فاقبل توبـــة التائبيـــن

رحم الله شاعرنا الكبير عمر الخيام الذى كان آخر ما نطق به قبل أن يسلم الروح إلى خالقها:

«اللهـــم إنى عرفتك على مبلغ إمكانى فاغفـــر لى؛ فإن معرفتى إياك وسيلتى إليك»

❑❑❑

الجزء الثانى

مـع العشاق

نبدأ الكتابة عن الغزل العفيف والعشـق الجارف فى الشـعر العربى القديم بعد أن انتهينا من بعض الشعراء العرب الكبار الذين أثروا تاريخ الشعر العربى بعطائهم الخالد.

ولست أدرى السـر فى تعلق القراء بمثل هذه النوعية من الكتابة؟.. هـل هى ضغوط الحياة التى يبحث كل منا بسـببها عن دواء للقلوب وشـفاء للنفوس؟.. وهل فعلا «المغنى» حياة الروح؟.. أم أن الكثيرين من القـراء مصابون «بوعكة عاطفية» ويجدون العلاج فى هذا الشـعر العربى الجميـل؟.. لسـت أدرى.. ولسـت «حكيم روحانى» كمـا قالت راقية إبراهيم لمحمد عبد الوهاب..فى رصاصة فى القلب.

لكن تلقيـت اتصالات عديدة ورسـائل على البريـد الإلكترونى.. مضمونها: (عـد.. فالعود أحمـدُ).

وها أنا أكتب عن أشهر العشاق فى الشعر العربى مثل «قيس وليلى» و«جميـل وبثينة» و«كُثـيّر وعزة» و«عروة وعفـراء».. وغيرهم وهم كثر! مسـتعينا فى ذلـك بالكثير مما سـطره الرواد فى ذلـك المجال ومنهم الأسـاتذة فتحى سـعيد فـى كتابه الجميل (عشـاق.. لكن شـعراء).. ود. شـوقى ضيـف، وكتابه «الحب العـذرى عند العـرب».. و(أحلى عشـرين قصيـدة حب) للشـاعر الكبير فاروق شوشـة وكتاب (مجانين العشـق العربى) للشـاعر الكبير أحمد سـويلم بخلاف دواوين الشعراء

الكبـــار كالمتنبى وأبى تمام، وجرير وديك الجـــن.. وغيرها من الذخائر التـــى احتوت هذا «الكنز» العربى وعلى رأســـها الكتاب العمدة فى هذا المجال.. وهو كتاب «الأغانى» للأصفهانى.

ولقـــد أجمـــع كل من كتب فى هـــذا الموضوع أن الحـــب طبيعة فى المخلوقات.. وهبها الله- سبحانه- وتعالى للجميع.. حتى تستمر الحياة على الأرض حتى إن أحد الشعراء قال:

تعلـق روحـى روحها قبل خلقنا ومن بعـد ما كنا نطافا وفى المهد
فـــزاد كمـــا زدنـــا فأصبـح ناميا وليـــس إذا متنـــا بمنفصم العهد

ووصف أحدهم الحب بأربعة أنواع: حب اســـتلطاف أشبه ما يكون بالألفـــة والصداقة.. وحب مغرور، يرضى به المحب غروره، وكبرياءه، وحب جســـدى ينبع من الغرائز الجنســـية، وحب عاطفى عنيف، وهو حب العشاق المتيمين المشـــهورين فى التاريخ، وحدد آخر الحب بسبع مراتب، أولها: مرتبة الإعجاب المتصل بالمحبوب:

نظـــرة فابتسامـــة فســـلام فكـــلام فموعـــد فلقـــاء

وثانيها: مرتبة الشوق إليه، وثالثها: مرتبة الأمل، أما الرابعة: فهى المرتبة التى ينشـــأ فيها الحب، حين تأخـــذ العاطفة فى النمو، فيصعد بالمحب إلى المرتبة الخامسة، وهى المرتبة التى يصبح فيها محبوبه مثله الأعلى فى الجمال والســـعادة به، وقد عبرت عن ذلك عزة صاحبة كثير حـــين فاجأها الحجاج- حاكم العراق أيـــام (الأمويين) - «والله ما أنت كما قال فيك كثير»؟

فردت عليه: إنه لم يرنى بالعين التى رأيتنى بها.
وقد قال فى ذلك بعض المحبين:

والله مـــا أدرى أزيـــدت ملاحـــة
وحسنا علـى النسـاء أم ليس لى عقل؟

ثم ينتقل المحب إلى المرتبة السادســة: هى التى يصطلى فيها نيران القلق والخوف والشك وتظهر عليه عوارض الحب والتى وصفها أحدهم:

دلائل الحب لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق

ثم يصل المحب إلى المرتبة الســابعة: والتى لا يستطيع فيها فكاكا؛ حيث يجمح الحب بصاحبه جموحا لا يعرف فيه قصدا ولا اعتدالا:

هو الحـب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل
فمـــا اختـــاره مضنـــى بـــه ولـــه عقـل
وعـــش خاليـــــا فالحـــب أولـــه عنـاء
وأوسطـــه سقـــم وآخـــره قتـــل

أو كما قال عنه قيس بن الملوح:

لقد ثبتـت فى القلب منك محبة كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

بل إنه وصل به الحال إلى القول:

أرانـى إذا صليـت يممـت نحوهـا
بوجهى وإن كـان المصلـى ورائيـا

وما بـــى إشـــراك ولكـــن حبهـــا

وعظم الجوى، أعيا الطبيب المداويا

لقد حاولت الإجابة عن: مين السبب فى الحب..

القلب ولا العين؟

مستشهدا بجواهر الشعر العربى:

إن العيـون التـــى فـــى طرفهـا حـــور

قتلننـــا ثـــم لـــم يحيـــن قتلانـا

يصرعن ذا اللُب حتى لا حـراك بـــه

وهـــن أضعـــف خلـــق الله إنسانـــا

وكذلك قول القائل:

لو كان قلبى معى ما اخترت غيركم

ولا رضيت سواكـم فـى الهوى بدلا

لكنـــه راغـــب فيمـــن يعذبـــه

وليس يقبـل لا لومـــا ولا عتبـــا

وتأثرت كثيرا بشـعر شهيدة العشـق الإلهى رابعة العدوية، وكذلك الشاعر عبدالسلام بن رغبان والملقب بعطيل العرب الذى قال:

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصـادف قلبـا خاليـا فتمكنـا

واسـتمتعت بالقصائد المغناة بصوت «صداح الشـرق» المطرب العربى

المعروف صباح فخرى.. وهو يقول:

جاءت معذبتـــى فـــى غيهـب الغسق
كأنها الكوكب الـدرى فـــى الأفـق
فقلـت: نورتنـــى يا خيـــر زائـرة
أما خشيت مـن الحراس فى الطرق..
فجاوبتنـــى ودمـــع العيـــن يسبقها..
مـن يركب البحر لا يخشى من الغرق
قبلتهـــا.. قبلتنـــى وهـــى قائلـــة
قبلت خـــدى فـلا تبخل على عنقى

□□□

عنترة وعبلة.. العشق والشعر

لم يولد عنترة شـاعرا كغيره من شـعراء القبائل فى الجاهلية، ولكن شاعريته تفجرت متأخرة بعد أن ثبتت فروسيته، وتمكن حب عبلة من قلبه، وبعد أن عايره نفر من قومه بأنه لا يقول الشعر.. فتحداه وتحدى كل ظروفه.. ونطق بالشـعر مفاخرا بفروسيته معلنا عن حبه.. معبرا عن أحواله.. مسجلا لسيرة حياته.

وعلى الرغم من شـهرة قصته مع عبلة وتحولها إلى أفلام ومسلسلات وأسـطورة شـعبية يرويها المداحون، فإن كتاب السـيرة لا يعتبرونه من «العذريـين» مثل قيس وليلى وجميل وبثينة وغيرهـم، وإنما أعدوه من «المتيمين» بالحب! وكذلك بالنسبة للشعر..

فعلى الرغم من وصفهم لعلقته بـ «الذهبية» لحسـن التصوير وسهولة ألفاظها وجمال موسيقاها.. فإنهم أيضا لا يعدونه من كبار الشعراء، مع أنه يكفيه قوله هذين البيتين الشـهيرين اللذين يكشفان عن حب عميق لا ينسـى حتـى والحبيب فى حومة البغى، فقـد تذكرها والرماح تغزو جسـده والسيوف الهندية تقطر بدمه، فأراد تقبيل تلك السيوف اللامعة لأنها تذكره بثغرها المتبسم:

ولقـد ذكرتـك والرمـاح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمى
فـوددت تقبيـل السيـوف لأنها لمعـت كبـارق ثغـرك المتبسـم

وقد أوقف عنترة غزله لعبلة وحدها.. ولم يرغب فى سـواها وها هو

ذا يصف نفسه لها وكأنها أوراق اعتماده.. كحبيبها:

يا عبل.. أين من المنية مهربى ... إن كان ربى فى السماء قضاها
إنى امرؤ سمح الخليقة ماجد ... لا أتبع النفس اللجوج هواها
ولئن سألت بذاك عبلة خبرت ... ألاّ أريد من النساء سواها
وأجيبها إما دعت لعظيمة ... وأغيثها.. وأعف عما ساها

كما أنك إذا سألت عن حالى فى الحرب يخبرك من حضرها بأنى كريم عالى الهمة وأعف عن اغتنام الأموال:

هلا سألت الخيل يابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقيعة أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ولكن مشكلة عنترة لم تكن مع عبلة.. فقد بادلته حبا بحب.. بل هامت به ولم ترغب فى سواه.. ولكن مشكلته كانت مع عمه مالك أبى عبلة الذى رفض هذا الحب وامتنع عن تزويجه إياها.. لأنه عبد أسود مشكوك فى نسبه، ولا يحق له عشق عبلة الحرة! وهو ما كان يؤلم عنترة.. فيصرخ شاكيا:

يا عبل.. كم يشجى فؤادى بالنوى
ويروعنى صوت الغراب الأسود
كيف السلوّ وما سمعت حمائما
ينـدبن إلا كنت أول منشد

وسألـت طير الدوح كم مثلى شجا
بـأنينـه وحنينـه المتـردد

ولم يكتـف عمه بالرفض ولكنه اصطحـب ابنته ورحل عن القبيلة، ونزل عند بنى شـيبان.. فحزن عنترة لذلك حزنا شـديدا وخشـى أن يفقدها إلى الأبد:

إذا كان دمعى شاهدى كيف أجحد ونار اشتياقى فى الحشا تتوقد
أقاتل أشواقى بصبـرى تجلـدا وقلبـى فـى قيـد الغـرام مقيد
سأنـدب حتى يعلم الطير أننى حزيـن ويرثـى لى الحمـام المغرد

وقـد علـم عنترة أن عمارة بـن زياد يرغب فى خطبـة عبلة وأبوها لا يمانـع، كما علم أن فارسـا آخـر هو روضة بن منيع السـعدى جاء لخطبتها.. فدعاه إلى المبارزة.. بادئا بقوله:

كـم يبعـد الدهر من أرجو أقاربه عنـى.. ويبعـث شيطانـا أحاربه
فيالـه من زمـان.. كلما انصرفت صروفـه.. فتكـت فينـا عواقبه
كـم ليلة سرت فى البيداء منفردا والليـل للغـرب قد مالت كواكبه
يا طامعا فى هلاكى عد بلا طمع ولا تـرد كأس حتف أنت شاربه

وعندما وقع فى الأسـر فى حرب بين العرب والعجم، وكانت عبلة من ضمن السـبايا، لم يستسـلم وتمنى الموت.. وتذكر ما كان بينه وبين حبيبته.. متحسرا على قسوة الدهر عليه:

يا دهـر لا تبـق علـىّ فقـد دنا ما كنـت أطلـب قبـل ذا وأريد

يا عبـل.. قد دنت المنية فاندبى إن كـان جفنـك بالدمـوع يجود
لهفـى عليـك إذا بقيـت سـبية تدعيـن عنتـر وهـو عنك بعيد
يا عبـل.. كم من جحفـل فرقته والجـو أسـود والجبـال تميـد
فسطـا علـىّ الدهـر سطوة غادر والدهـر يبخـل تارة ويجـود

هكـذا كان عنترة وعبلة.. ذكريات قديمة وحب حاضر وفراق دائم.. والغريب أن كتب السـيرة والأشعار لم تخبرنا.. كيف كانت النهاية؟.. بل تعددت الروايات فى موت عنترة نفسـه الذى قيل أنه بلغ التسعين من عمره.. وقيل إنه مات مقتولا إثر رميه بسـهم مسـموم من فارس طئ يدعى الأسد الرهيص.. ونظرا لكبر سنه وضعف بصره فإنه لم يستطع أن يتلافى السهم الذى سدد إلى ظهره.

ونختم ببعض أبيات لفارسـنا الشاعر يشـكو فيه الدهر.. وصنوفه.. وما جناه عليه:

أعاتـب دهـرا لا يليـن لناصـح
وأخفى الجوى فى القلب والدمع فاضحى
فيـارب لا تجعـل حياتـى مذمـة
ولا موتتـى بيـن النسـاء النـوائـح
ولكـن قتيـلا يـدرج الطيـر حولـه
وتشـرب غربـان الفلا مـن جوانحـى

نعم يا عنترة.. فقد مت قتيلا.. ونعق طير البين على جثتك وشربت غربان الصحراء من دمك!

ألست أنت القائل:

ناشـــدتك الله يا طير الحمام إذا رأيت يوما حمـول القوم فانعانى
وقل طـر يحـا تركنـاه وقد فنيت دموعه.. وهو يبكى بالدم القانى

□□□

عمر بن أبى ربيعة.. شاعر الحب والغزل

إنـى امرؤ مولع بالحسن اتبعه لا حظ لـى فيـه إلا لذة النظر

هكذا وصف نفســه.. فتى قريش المدلل والشــاعر الغزلى الشهير عمر بن أبى ربيعة.. الشــاب المترف الملول.. الذى كان ينقل فؤاده كما شــاء من الهوى، فتعددت النســاء اللاتى أعجب بهن وكتب فيهن وعنهن، ومنهن: هند.. ونُعم.. والرباب.. وغيرهن كثيرات، وقد ولد عمر عام ٢٣ هجريــة يــوم وفاة الخليفة عمر بن الخطــاب.. فأسماه أبوه – وكان من سادة قريش – على اسمه.. ولكن نظرًا لثراء الأسرة وشباب عمر وماله، فقد نشأ مترفا مدللا.. يطارد الحسناوات ويشبب بهن، مع حفاظه على القيم العربية الســائدة وقتها.. بمعنى أنه كان كثير الكلام قليل الفعل.. كعادة الشــعراء حيث يقولون ما لا يفعلــون.. وإنما هو الخيال الخصب والقدرة والموهبة على تصوير الأحداث والأماكن وكأنها حقائق تاريخية، كما أنه تخصص فى لون واحد من الشعر ويكاد يكون باعث نهضته بعد أســتاذه أمرؤ القيس، وهو الشــعر الغزلى، فلم يهجُ عمر ولم يمدح، أما الفخر.. فقد خص نفسه به وقومه فقط.

حيث قال:

ونعلـم أننــا سنبيــد يومـا كما قد باد من عدد الشعـوب
فنجتنب المقازع حيث كانت ونكتسب الغلاء مع الكسوب

ولو سئلت بنا البطحاء قالت هم أهل الفواضل والسيوب

فهـا هو يعلن عن إيمانه وتمسكه بالقيم العربية واجتناب الفحش والإساءة للغير، ولو سئلت مكة عنا لقالت أننا من أهل الفضل والعطايا.

ومع هذه المسحة الإيمانية.. إلا أنه كان معجبا بنفسه أشد الإعجاب.. وكثيرا ما صور نفسه مطاردا من النساء الراغبات فى الوصل، وها هو يصور ثلاث فتيات شقيقات يتحدثن عنه فى غيابه من كثرة شهرته، وعندما يظهر لهن.. يعرفنه.. كما يعرفن القمر!

قلن: يسترضينها.. منيتنا لو أتانا اليوم فى سَرِ عمر
بينما يذكرننى.. أبصرننى دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكبرى: أتعرفن الفتى؟ قالت الوسطى: نعم، هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه، وهل يخفى القمر!

ليس ذلك فقط.. بل كثيرا ما صور نفسه محور حياة البعض منهن.. فالدموع تذرف من أجله، ولا تفكير إلا فيه.. ولا أمل لهن إلا أن يسترضينه فيرضى!

حيث يقول:

تقول وعينها تذرى دموعا لها نسق على الخدين تجرى
ألست أقر من يمشى بعينى وأنت الهم فى الدنيا وذكرى
أمالك حاجة فيما لدينا تكن لك عندنا حقا فأدرى!

نعم كان شاعرا غزليا.. إلا إنه كان شاعرا مؤسسا مجددا فتعبيراته

قوية.. وألفاظه موحية.. معاتبة ناعمة جميلة.

واقرأ كيف عبر عن عتاب إحدى معجباته:

قالت وأبثثتها سرى وبحت به

قد كنت عندى تحت الستر فاستتر

ألست تبصر من حولى، فقلت لها:

غطى هواك وما ألقى على بصرى

وفى أبيات أخرى.. يقول منها:

لقد دب الهوى لك فى فؤادى

دبيب دم الحياة إلى العروق

فهو الشاعر المدلل المولع بالحسناوات.. يتبعهن أينما كن، ولكن أهم ما يقال عنه إنه أول من أدخل الشعر القصصى، من خلال قصة أو موقف.. مصور بالشعر.. فقد أبدع فيه وتفوق به، وله قصيدة شهيرة فى إحدى محبوباته «نُعم» يصور فيها كيف ذهب إليها والناس نيام والتقى بها وأطفئ نار الوجد منها.. وفاجأهم الصبح.. فساعدتها شقيقتها على تهريبه.. حتى لا يفتضح أمره!

فقالت لأختيها: أعينا على فتى

أتى زائرا، والأمر للأمر يقدر

فأقبلتا، فارتاعتا، ثم قالتا:

أقلى عليك اللوم، فالخطب أيسر

فقالت لها الصغرى: سأعطيه مطرفى
ودرعى وهـذا البُـرد إن كـان يحـذر
يقـــوم فيمشـــى بيننـــا متنكـرا
فلا سرنـــا يفشـــو ولا هـــو يظهـــر
فكـان مجنـيً دون مـن كنت أتقى
ثلاث شخـــوص: كاعبـــان ومعصـر
فلما أجزنا ساحة الحى قلـن لـــى:
ألم تتـق الأعـــداء والليـــل مقمـر؟
إذا جئـت فامنح طرف عينك غيرنا
لكـى يحسبـوا أن الهوى حيث تنظر

والقصيدة طويلة تتكون من ٦٠ بيتا.. وكلها تصوير للمغامرة التى قام بها لزيارة محبوبته بعد أن غاب القمر ورحل الرعيان ونام السمار، وبعد أن قضى غرضه.. هرب فى لبس النســاء يسير مع شقيقتيها.. فنجا مما كان يتقى!

وهو ما عايره به بعد مئات السنوات الأمير الشاعر أبو فراس الحمدانى حين قال:

ولا خير فى دفع الردى بمذلة كمـا ردهـا يوما بسوءته عمر!

□□□

قيس بن الملوح [١ - ٣]

عندمـا يُذكر الحب العذرى فى الشـعر العربى، يتبـادر إلى الذهن مباشـرة..قصة (ليلى والمجنون).. ليلى العامريـة.. وقيس بن الملوح.. لأن ما كان بينهما لم يكن سوى حب عذرى طاهر.. عبّرت عنه مشاعر متدفقة فى صورة أبيات جميلة تناقلتها الأجيال على مر السنين.

فقـد كان الاثنان من بنى عامر فى أطراف نجـد.. وكانا متجاورين وتجمعهما صلة قرابة.. وكان كل منهما يرعى غنم أسرته.. ومنها «البِهْم» وهى صغار الغنم.. ومن ثم كثرت لقاءاتهما.. وتعلق كل منهما بالآخر.. وهاما ببعضهما حبا.. ذاك الحب الذى «يصادف قلبا خاليا فيتمكنا».

ويقول قيس عن ذلك:

تعلقت ليلى وهـى ذات ذؤابة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين ترعى البِهْم ياليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البِهْم

كيف يا قيس؟.. فليس كل ما يشتهيه المرء يدركه.. فقد كانت عادة أهل البادية – وهى مسـتمرة فى الريف المصرى حتى الآن– عندما تكبر البنت.. وتصبح عروسـا تُخطب.. يحجبها أهلها فى المنزل.. وهو ما لا يقبله العاشـق الولهان، وقد عبر عن ذلك أمير الشعراء أحمد شوقى فى مسرحيته (مجنون ليلى) بأبيات جميلة على لسان قيس:

سجـا الليل حتى هاج لى الشعر والهوى
وما البيـد إلا الليـل والشعـر والحـب

ملأت سمـاء البيـد عشقـا وأرضهـا
وحُملـت وحـدى ذلك العشـق يا رب

فعلا.. ما الصحراء.. غير ليل.. وشعر.. وحب.. وقد ملأ قيس سماء الصحراء وأرضها بهذا العشـق دون الوصل مـع الحبيب.. فليس أمامه سوى الشكوى لله.

خاصة.. بعد أن جن شوقه:

وباتت خيامى خطوة من خيامها فلم يشفنى منهـا جوار ولا قرب
إذا طاف قلبى حولهـا جُن شوقه كذلك يطفى الغلة المنهل العـذب
يحن إذا شطت ويصبـو إذا دنـت فيا ويح قلبى كم يحن وكم يصبو

هـذه هى الحالة التى كان عليها شـاعرنا.. فتى نجد جميل الوجه ذو المشاعر الفياضة.. كما وصفه أمير الشعراء، أما هو فقد قال عن نفسه مخاطبا ليلاه:

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لى الليـل شاقتنـى إليك المضاجع
أقضى نهارى بالحديـث وبالمنى ويجمعنى والهم بالليـل جامـع

فقد كان يسـتنفد النهار بالحديث مـع أترابه.. مع التمنى أن يأتى الليـل فيتمكن مـن رؤياها.. ولكن هـذا لم يكن يتحقـق فتثقله الهموم ويخاصم عيونه النوم.

ولذلك كان يصطنع الأسباب.. بحجة أنه «قد خلت من دارنا النار».. وهى حجة لم تخل على أبو ليلى ولكنه يطلب من ابنته أن تقضى لابن

عمها «حقا واجبا» بأن تأتى بوعاء وتملأه حطبا..

ولكن سرعان ما يفضح قيس نفسه معاتبا ليلاه:

كم جئت ليلى بأسباب ملفقة

ما كان أكثر أسبابى وعلاتى

بالروح ليلى قضت لى حاجة عرضت

ما ضرها لو قضت للقلب حاجاتى

مضت لأبياتها ترتاد لى قبسا

والنار يا روح قيس ملء أبياتى

فيا ليلى لا تعطنى نارا.. فالنار مشتعلة فى قلبى.. وتسارع ليلى بالرد.. وتكون أكثر صراحة:

قد تحملت فى الهوى فوق ما يحمل البشر

لك قلب.. يا قيس فسله ينبئك بالخبر

ما فؤادى حديد.. ولا حجر

وبعدين يا ليلى.. ماذا أفعل..؟

هكذا عقب قيس:

لست ليلاى داريا كيف أشكو وأنفجر

أشرح الشوق كله أم من الشوق أختصر؟

وعندما تتأكد ليلى من عمق غرامه بها.. «تنقح» عليها طبيعة الأنثى.. فتتدلل وتسأله عن الأشعار التى قالها فى بعض الحسناوات.. «كل ظبى

لقيته.. صغت فى جيده الدرر».

إيه يا قيس.. «أترى قد سلوتنا.. وعشقت المها الآخر»؟

وبالطبع ينفى قيس.. ويتعلل بأنهن يشبهنها.. ولذلك قال فيهن بعض الشعر.. ولكنك يا ليلى: لست كالغيد لا.. ولا قمر البيد كالقمر».

ثم يزيدها حججا.. وإقناعا.. بإخلاصه:

رب فجر سألته هل تنفست فى السحر
وريح حسبتها جررت ذيلك العطر
وغزال جفونه سرقت عينك الحور

□□□

نـوادر المجنـــون [٢ - ٣]

لقــد تعلق كل مــن قيس بن الملوح وليلى العامريـــة ببعضهما البعض واعترافهما بالحب المتبادل وأنه كان يصطنع الأســباب لرؤياها.. حتى إن أباها اتهمه أنه جاء ليشعل البيت نارا.. وليس ليطلب نارا!

وقــد كان ذلك من خلال أبيات المســرحية الشــعرية «مجنون ليلى» لأمير الشعراء أحمد شوقى.. والتى لم تختلف وقائعها عما جرى بالفعل.

فقد روت الكتب أن قيســا كان يمر بحى ليلى وهو راكب ناقة له، وعندما رآها تجلس مع بعض النسوة نزل وجلس معهن وأخذ يحادثهن وعينه معلقة بليلى التى حاولت التغطية على ما يحدث فأمســكت معه اللحم وهو يقطعه، ففوجئت به يقطع كفه بالسكين وهو شاخص فيها.. وعندمــا وضع اللحم علــى النار.. فوجئت به أيضــا يمد يده إلى الجمر ويقلب به اللحم.. فاحترقت دون أن يشعر!

وفى ليلة أخرى.. جاءهم ضيوف.. فأرسله أبوه إلى خيام عمه ليطلب منه آدم (غموس) فطلب الأخير من ابنته أن تحضر (حق الســمن) وتملأ لقيس منه إناء.. فجعلت تصب السمن وهما يتحادثان..حتى سال السمن من الإناء.. ونزل على أقدامهما وهم لا يدريان.

ويحكــى قيس أنه أتاهم فى ليلــة أخرى يطلب نارا وهو متلفح ببرد (ثــوب) فأعطته ليلى النار فــى خرقة.. ووقفا يتحدثان، «فلما احترقت الخرقة قطعت من ثوبى خرقة أخرى ووضعت بها النار، وكلما احترقت

خرقة قطعت أخرى.. حتى لم يبق علىّ من الثوب إلا ما ستر عورتى»!

هكذا كان حاله.. لا يرى غير ليلى.. ولا يسمع لغير صوتها وعندما سئل ما الذى أعجبك منها؟.. أجاب: كل شىء.. رأيته وسمعته منها أعجبنى.. والله ما رأيت شيئا منها قط إلا كان فى عينى حسنا.. وطلب منه وصفها فقال:

بيضاء خالصة البياض كأنها قمر توسط جنح ليل مُبْرد
موسومة بالحسن ذات حواسد إن الجمال مظنة للحسد

ولم يكن الأمر بينهما يخلو من الهجر والممانعة.. وهو ما كان يزيد العشق بينهما اشتعالا.. فقد تصادف أن وجدها تحادث فتى بالحى يسمى منازل.. وكان قيس يعتبره غريمه فى حب ليلى.. فجزع وغضب غضبا شديدا وهَم بالانصراف حزينا.. إلا أن ليلى لحقت به تسترضيه وهى تقول:

كلانا مظهر للناس بغضا وكل عند صاحبه مكين
تبلّغنا العيون بما أردنا وفى القلبين ثم هوى دفين
وأسرار الملاحظ ليس تخفى إذا نطقت بما تخفى العيون

نعم يا ليلى.. فالصب تفضحه عيونه.. ودلائل الحب لا تخفى على أحد.. ولكن قيس بدأ يشعر بالتشاؤم.. والقلق خاصة بعد أن أحس أنه لم يعد مرحبا به عند أهلها.. ولذلك انصرف.. وهو يقول:

أظن هواها تاركى بمضلة من الأرض لا مال لدى ولا أهل

ولا أحـد أفضـى إليـه وصيتـى ولا صاحـب إلا المطيـة والرحل
محا حبها حـب الآلى كُـن قبلها وحلت مكانا لم يكن حُلّ من قبلْ

وزاد من وجيعته أيضا رد فعل أهلها على ما يسمى «بالتشبيب» وهو انتشـار الشـعر الذى كان يقوله قيس فى ليلى بين الناس.. وهى عادة كانت العرب ترفضهـا تماما.. خاصة بعدما انحازت ليلى لموقف أهلها وترفض مقابلته.. وهو ما دفع قيس لأن يقول:

وما كشكـرى شكـر لو يوافقنى ولا منـاى سـواه لو يُواتينـى
أطعتـه وعصيت الناس كلهم فى أمـره وهـواه وهو يعصينى

وعندما طالت القطيعة بينهما.. أرسل لها رسولا وطلب منه أن يقف بالقرب من خيمتها حيث تسمعه.. ويقول:

الله يعلـم أن النفـس هالكـة باليـأس منـك ولكنـى أعـزِّيها
منيتك النفس حتى قـد أضربهـا واستيقنت خلفـا ممـا أمنيهـا
وسـاعـة منك ألهوها وإن قصرت أشهى إلىّ مـن الدنيـا وما فيهـا

وعندما سمعت ليلى تلك الأبيات.. بكت بكاء شـديدا.. وطلبت من الرسول أن يبلغه السلام ويقول له:

نفسى فداؤك لو نفسى ملكت إذن ما كـان غيـرك يجزيها ويرضيها
صبـرا على ما قضاه الله فيك على مرارة فـى اصطبارى عنك أخفيها

وعندما أبلغ الرسول قيسا بما قالته ليلى سقط مغشيا عليه!
ومع مرور الأيام لاحظت أمه تركه للطعام والشـراب.. فأشفقت عليه

وأرسلت لليلى ترجوها زيارته.. لعله يعود عما هو فيه ويتوب إلى رشده. وجاءته ليلى فعلا وقالت له إن أمك تزعم أنك جننت من أجلى.. فاتق الله وأبق على نفسك فأخذ يبكى ويقول:

قالت جننت على رأسى فقلت لها
الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه
وإنما يصرع المجنون فى الحين

واستمر قيس على حاله.. حتى قال قومه لأبيه: لعل الجن قد أصابه فكان يأتيه بالتعاويذ ويرقيه ويرش عليه الماء لعل الجن تنصرف عنه.. ولكن قيسا كان يعلم بدائه.. وكان يقول:

وجاءوا إليه بالتعاويذ والرقى وصبوا عليه الماء من ألم النكس
وقالوا به من أعين الجن نظرة ولو عقلوا قالوا به أعين الإنس

أو كما قال أمير الشعراء:

وإن عجز الطبيب لقال داء بمس الجن ليس له دواء

مسكين يا قيس لقد كنت فتىّ نبهّ الشعر قدره حرموك من ليلى.. ورفض أبوها زواجها منك وأهدر الحاكم دمك إنك أنت القائل:

أحب من الأسماء ما وافق اسمها أو أشبهه أو كان منه مدانيا

□□□

ليلى فى العراق وقيس فى الكعبة [٣ - ٣]

تحلـق حول قيس أصحابه من شـباب الحى بجبلـى النعان.. وهو يبكى من شـدة الولع.. ويتعذب من ألم الفراق.. وهم يحاولون التسـرية عنه ومواسـاته بعد فراق ليلى، وظلوا على حالهم هذا أياما عدة.. دون جـدوى.. حتى هطلت السـماء بأمطار غزيرة.. أعقبها سـيول كثيرة.. جعلت الدمع يتساقط من عين العاشق الموجوع.. فأخذ يبكى وينشد:

جرى السيل فاستبكانى السيل إذ جرى
وفاضـت لـه مـن مقلتـى غـروب
ومـا ذاك إلا حيـن أيقنـت أنـه
يكـون بـوادٍ أنـت فيـه قريـب
أظـل غريـب الـدار فـى أرض عامر
ألا كـل مهجـور هنـاك غريـب
ولا خيـر فـى الدنيـا إذا أنت لم تزر
حبيبـا ولـم يطـرب إليـك حبيـب

وأخذه أصحابه إلى جبل آخر.. «التوباد» ليروحوا عنه، لعل رشـده يعود إليه.. ولكن هيهات.. فقد تذكر أنه وليلى فى صباهما كانا يرتادان هذا الجبـل وهما يرعيان أغنام قومهما، ولـما ذهب عقله.. كان يذهب وحـده إلى هـذا الجبل ويقيم فيه، ثم يهيم علـى وجهه حتى يصل إلى

نواحى الشـــام، فيســـأل من يصادفه: أين أنتم مـــن أرض بنى عامر؟.. فيخبرونه – بعد أن يرقوا لحاله – إنه بالشـــام وعليه أن يتبع نجم كذا حتى يعود إلى دياره، ولكن كثيرا ما كان يجد نفســـه فى أرض غريبة.. فيســـأل: أين أنـــا من أرض بنى عامر؟.. فيجيبه من يســـأله: أنت فى اليمن وعليك أن تتبع نجم كذا للعودة إلى قومك.

وقـــد تذكر قيس كل ذلك عندما وقعت عيناه على جبل التوباد فأخذ يبكى ويقول:

وأجهشت للتوبـاد حيـــن رأيتـــه
وكبـــــر للرحمـــن حيـــن رآنـــى
وأذرفـت دمـــع العيـــن لما عرفتـــه
ونادى بأعلـــــى صوتـــه فدعانـــى
فقلـت لـــه: قـــد كان حولك جيرة
وعهـدى بـــذاك الحـــى منذ زمان
فقال: مضـوا واستودعونى حديثهم
ومـن ذا الـــذى يبقـى على الحدثان

وقد أتاه من أخبره أن ليلى ارتحلت مع أبيها وقومها ناحية العراق.. وأنها مريضة.. فزاد همه واشتد ألمه.. وأخذ ينشد:

يقولـون ليلـــى بالعـــراق مريضة
فياليتنى كنت الطبيـب المداويـــا

تمر الليالى والشهور ولا أرى
غرامى لها يزداد إلا تماديا
ألا يا حمامات العراق أعننى
على شجنى، وابكين مثل بكائيا

ثم اشتد المرض عليه.. وطال جنونه.. فقال بعض رجال الحى لأبيه: احجج به إلى مكة وادع الله أن يلطف به.. وأمره أن يتعلق بأستار الكعبة.. ويسأل الله أن يعافيه مما به.. ويبغض ليلى إليه.. لعله يخلص من هذا البلاء، ولكن يموت الزمار وأصابعه تلعب.. كما يقول المثل.. فأثناء سيره مع أبيه فى أحد الأودية لاحظ حمام يتجاوب.. فبكى قائلا:

ألا يا حمام الأيك مالك باكيا
أفارقت إلفا أم جفاك حبيب
دعاك الهوى والشوق لما ترنمت
هتوف الضحى بين الغصون طروب
تجاوب ورقا قد سمعن لصوتها
فكل لكل مسعد ومجيب

وعندما بلغوا منى أقاموا فيها.. وفى الليل سمع أحد الأشخاص يصيح: يا ليلى.. فصرخ المجنون صرخة خلعت قلوب من حوله.. وسقط مغشيا عليه.. ثم أفاق فى الصباح أصفر الوجه ذاهلًا، فأنشد يقول:

عرضت علـى قلبى العزاء فقال لى
من الآن فايـأس لا أغـرك بالصبـر
إذا بـان من تهـوى وأصبح نائيا
فلا شىء أجدى من حـولك القبـر
ودعا داع إذ نحن بالحيف من منى
فهيج أشجـان الفـؤاد وما يـدرى
دعا باسم ليلـى غيرهـا فإنمـا
أطار بليلـى طائـر كان فى صدرى
دعا باسـم ليلـى ضل الله سعيه
وليلـى بأرض عنـه نازحـة قفر

وبعدما هبطا من منى.. طلب منه أبوه أن يتعلق بأستار الكعبة.. وأن يسأل الله تعالى أن يعافيه من حب ليلى، فتعلق قيس فعلا بأستار الكعبة وقال: اللهم زدنى بليلى حبا وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها أبدا..

ثم أنشد شعرا:

دعا المحـرمون الله يستغفـرونـه بمكة وهنا أن تمحـى ذنوبهـا
وناديـت أن يارب أول سؤلتـى لنفسى ليلى ثم أنـت حسيبهـا
فإن أعط ليلى حياتـى لا يتـب إلى الله خلـق توبـة لا أتوبهـا
وكم قائل قـد قال تـب فعصيته وتلك لعمـرى توبـة لا أتوبهـا
فيا نفس صبرا لست والله فاعلمى بأول نفـس غـاب عنها حبيبها

ثم انطلق فى الصحراء هائما.. وكان لا يأكل إلا ما تنبت الأرض ولا يشرب إلا مع الظباء.. وطال شعر جسده ورأسه حتى ألفته الوحوش ولم تكن تنفر منه.

❑❑❑

قيـــس ولبنـى [١ - ٣]

وهذا قيس آخر.. فتى كنانة المدلل.. الذى أحب وعشـق مصادفة.. حيـث أتاه هـوى «لبنى» قبل أن يعرف الهـوى.. فصادف قلبه الخالى فتمكن منه، إنه قيس بن ذريح والذى اشـتهر بأنه رضيع الحسـين بن على رضى الله عنه.. فقد رضعا من ثدى واحد، وقد تصادف أنه مر ذات يوم بخيام قبيلة كعب بن خزاعة، وطلب شـربة ماء.. فخرجت له بها مـن خيمتها فتاة طويلة القامة جميلة الطلعة حلوة الحديث.. إنها لبنى بنـت الحبـاب الكعبية.. وما أن رأها حتى تعلـق بها.. وظل يحادثها حتـى أتى أبوها وتعرف عليه وأكرمه، وبعد انصرافه أخذ يردد الشـعر فيها.. ثم عاود الزيارة واشـتكى كل منهما بما فى نفسـه نحو الآخر.. وفضحت عيونهما ما تخفيه قلوبهما.

وبعد فترة طلب من أبيه أن يخطب له لبنى.. فرفض ونصحه بزواج إحـدى بنـات عمه.. فهن أحق به.. كما أنـه لا يرغب أن يذهب ماله لغرباء.. فشـكى لأمه موقف أبيه فكانت أشد قسوة عليه،فذهب لشقيقه فى الرضاعة الحسين بن على فلم يخذله وقام معه نحو قومه وحلف على أبيـه أن يخطب له لبنى.. وخرجوا جميعا حتى أتوا قومها وخطبوها.. وزفت إليه.. وأقاما معا سعيدين بحبهما وزواجهما.

ولكن رغد العيش من المحال أن يسـتمر.. فسـرعان ما تأتى الرياح بما لا تشـتهى السـفن، فقد كانت أمه غير راضية عـن تلك الزيجة..

وانتظرت حتى مرض قيس فخاطبت أباه بأنها تخشى أن يموت ابنها ولا يترك خلفا له فزوجته لا تنجب، وهو ذو مال كثير، فطلبت من أبيه أن يزوجه غيرها، وعندما فاتحه أبوه بذلك.. وضعه قيس أمام ثلاثة خيارات: إما أن يتزوج هو فيرزق بولد ثان، أو أن يرحل هو ولبنى عن الحى، أو يتركها معهم ويرحل هو، فرفض أبوه وأقسم عليه إن لم يطلقها فلن يجمعهما سقف واحد، وكان يخرج من الخيمة ويقف تحت أشعة الشمس وحرها.. فيخرج إليه قيس ويجاوره ويظله برداءه حتى يسقط الظل عليه.. فينصرف عنه.

وكانت لبنى هى الأخرى تشجعه على ذلك.. وكانت تقول له: يا قيس لا تطع أباك فتهلك وأهلك معك.. وكان يجيبها: ما كنت أطيع أحدا فيك أبدا..

ولكنه بمرور الأيام لم يستطع مقاومة ضغط والديه، وما أن نطق بالطلاق حتى طار عقله ومسه شىء من الجنون، وانطلق الشعر على لسانه.. ليعبر به عن حزنه ويأسه.. فقال:

يقولون لبنى فتنة، كنت قبلها
بخير فلا تندم عليها وطلق
وددت وبيت الله إنى عصيتهم
وحملت فى رضوانها كل موبق
وكلفت خوض البحر والبحر زاخر
أبيت على أثباج موج مغرق

كأنـى أرى الناس المحـبين بعدهـا
عصـــــارة ماء الحنظـل المتدفـق
وتنكر عينى بعدهـا كـــل منظـــر
ويكـره سمعـى بعدهـا كل منطق

أمـا عن لبنـى فقد علمت بخـبر طلاقها.. وحزنت حزنا شـديدا، وأرسلت إلى أبيها تخبره فأتاها، وعندما علم قيس بذلك حاول الاقتراب من خيمتها فمنعه أهلها.. وعندما شـاهدها راحلة سقط مغشيا عليه، ثم أفاق وأنشد:

وإنـى لمفـن دمـع عينى بالبكـــا حـذار الذى قـد كـان أو هو كائن
وقالوا غـــدا أو بعـد ذاك بليلـة فـــراق حبيب لم يبـن وهـو بائن
وما كنت أخشى أن تكـون منيتى بكفيـك إلا أن ما حـــان حائـــن

وهو على حاله هذا رأى غرابا أسـود يسقط بجانبه.. فانزعج وتطير منه ثم قال:

ألا يا غـــراب البين ويحـــك نبّنى
بعلمـــك مـــن لبنـــى وأنـــت خبيـــر
فإن أنـــت لـم تخبر بمـــا قد علمته
فـــلا طـــرت إلا والجنـاح كسيـــر
ودرت بأعـــداء حبيبـــك فيهـــم
كمـــا قـــد ترانـــى بالحبيـب أدور

وعندمـا أتى عليه الليل.. وحل الظلام.. دخل إلى مضجعها.. وأخذ يتمرغ فيه متوجعا.. باكيا يقول:

بـت والهـم يـا لبنـى ضجيعـى
وجـرت – مـذ نأيت عنى– دموعى
وتنفسـت إذ ذكـرتك حتـى
زالت اليـوم عن فؤادى ضلوعـى
ليتنـى قـد فدتك نفسى وأهلـى
هـل لدهـر مضـى لنا من رجوع

وجاء الصبح..فخرج مسرعا نحو الطريق الذى سلكته يتنسم روائحها.. ويتذكر حديثها.. ثم شـاهد ظبية فحاول الاقـتراب منها ولكنها نفرت منه.. فأنشد:

ألا يا شـبه لبنى لا تـراعى ولا تتيممـى قلـل القـلاع
وأصبحـت الغـداة ألـوم نفسى علـى شـىء وليـس بمستطـاع
وقد عشنـا نلذ العيش حينـا لـو أن الدهـر للإنسان راع
ولكن الجميـع إلـى افتـراق وأسـباب الحتـوف لها دواع

وظل يعاتب نفسـه على طاعتـه لوالديه وطلاقه للبنى.. ويقول: لقد جنيت على نفسـى.. فلماذا لم أذهب بهـا بعيدا.. وها أنا الآن ميت.. فمن يرد روحى إلىّ..

وانسـابت دموعه على خديه حتى بللت معطفه.. واشتد بكاؤه وهو

يلصق خديه بالأرض.. ويقول:

وكـل مصيبـات الزمـان وجدتهـا

سـوى فرقة الأحباب هينة الخطب

□□□

قيس ولبنى وغربان النوى [٢ - ٣]

حزنـت لبنى حزنا شـديدا بعـد طلاقها من قيـس ورحيلها إلى ديار قومها، وكانت دائما ما تسـأل عنه كل من يأتيها من عشـيرته.. وتطلب منهم أن يرددوا عليها أشعاره.. وهى تبكى على ما حدث لهما.. وتذكرت ذات يوم قوله فى غراب البين (غراب أسود صغير).

"ألا يا غراب البين قد طرت بالذى أحاذر من لبنى فهل أنت واقع"

وأمرت غلامها بأن يصطاد كل غراب أسود يراه.. وذات يوم جاءها بأربعة غربان، فأخذت تضربهم.. وأمسكت بأحدهم فنتفت ريشه وهى تقول:

لعمـرى لقـد صاح الغـــراب ببينهم
فأوجع قلبـى بالحديـث الذى يبدى
فقلت له: أفصحت، لا طرت بعدها
بريش فهـل للقلـب ويحـك من رد

وأخذت الثانى وكتفته وشدت رجليه بخيطين وباعدت بينهما، وهى تخاطبـه: أتبكـى بلا دمع وتفرق بين الناس بـلا حق، فمن أحق منك بالقتل الآن.. ثم تنشد:

ظعـن الذيـن فراقهـم أتوقـع وجـرى ببينهم الغـراب الأبقع
فزجرته أن لا يفـرخ بيضـة أبـدا ويصبـح واقعـا يتفجع
إن الذين نعيـت لـى بفـراقهم هم أسـهدوا ليلى التمام فأوجعوا

ثم أخذت الثالث فنتفت ريشه أيضا ثم ضربته حتى مات وهى تبكى وتقول:

ألا يا غـراب البين لونـك شاحب وأنـت بلوعـات الفـراق جديـر
فبيـن لنـا مـا قلـت إذ أنت واقع وبين لنـا مـا قلـت حيـن تطير
فإن يَكُ حقا ما تقـول فأصبحـت همومك شتـى والجنـاح كسيـر
ولازلـت مكسـورا عديمـا لناصر كمـا ليس لى مـن ظالمـى نصيـر

وجاءت بالرابع وكسـرت جناحه.. وأخذت تضرب فيه وتردد قول قيس:

لقد نـــادى الغـراب ببين لبنى فطـار القلب مـن حـذر الغـراب

فدخل أبوها عليها وهى فى تلك الحالة، وسألها لماذا تفعل ذلك؟.. فأجابته إن قيسـا دعا عليهن بالوقوع فلم يقعن.. فقال لها إنك وقيسـا تظلمان الغربان.. ألم تسمع قول القائل:

نعب الغـراب برؤيـة الأحبـاب فلذاك صـرت أحب كل غراب

قالت يا أبى ليس البيت كما قلته وإنما هو كالآتى:

نعب الغراب بفرقة الأحبـاب فلـذاك صـرت عدو كل غراب

فتركها والدها وشكاها لأمها من سوء فعلها وقولها وحزنها وحسرتها، أمـا قيـس فقد عانى من لوعة الفراق ولم يسـتطع نسـيان لبنى.. وظل يناجيها بأشعاره.. ومنها:

أحبك أصنافا من الحب لم أجد
لها مثلا فى سائر الناس يوصف
فمنهن حب للحبيب ورحمة
بمعرفتى منه بما يتكلف
ومنهن أن لا يعرض الدهر ذكرها
على القلب إلا كادت النفس تتلف
وحب بدا بالجسم واللون ظاهر
وحب لدى نفسى من الروح ألطف

وأحيانا كثيرة كان يذهب للنوم مبكرا لعلها تأتيه فى المنام.. فيمتع عينه بالنظر إليها.. ويسعد بحديثها وحلو كلامها.. وفى ذلك قال:

وإنى لأهوى النوم فى غير حينه لعل لقاء فى المنام يكون
تحدثنى الأحلام إنى أراكم فياليت أحلام المنام يقين
شهدت بأنى لم أحل عن مودة وأنى بكم لو تعلمين ضنين

وظل دائم التطلع إلى أيامه السابقة معها.. لائما لنفسه على ما فعل بطلاقها قائلا:

أتبكى على لبنى وأنت تركتها
وكنت كآت حتفه وهو طائع
ألا إنما أبكى لما هو واقع
فهل جزعى من وشك ذلك نافع

وما كل مـا منتـك نفسـك خاليـا
تلاقـى ولا كـل الهوى أنت تابع
نهـارى نهـار الوالهيـن صـبابـة
وليلـى تنبـو فيـه عنـى المضاجع
وقـد كنـت قبـل اليوم خلوا وإنما
تقسـم بيـن الهالكيـن المصـارع

ولما أضناه الحب.. واشـتد به الوجع.. وهزل جسده اصطحبه بعض رفاقه إلى ديارها لعله يحظى بنظرة أو لقاء، فلما وقعت عيناه عليها سقط مغشيا عليه وعندما أفاق أخذ يقول:

الله يـدرى ومـا يـدرى بـه أحـد
مـاذا أجمجم مـن ذكـراك أحيانـا
لا بارك الله فيمـن كـان يحسبكـم
إلا على العهـد حتـى كان ما كانا
أن تصرمى الحبل أو تمسى مفارقة
فالدهـر يحـدث للإنسـان ألوانـا

وبعد حين أشار عليه بعض القوم أن يذهب إلى الحج لعل الله يخفف عنه ما يعانيه، ولكن تصادف أن لبنى أيضا ذهبت للحج هى الأخرى.. فرأها فثبت مكانه مندهشـا.. ولم ينطق وعندما ابتعدت عنه أخذ يبكى ويقول:

ويـوم مِنَـى أعرضت عنى فلم أقل بحاجـة نفـس عنـد لبنى مقالها

وفى اليأس للنفس المريضة راحة إذا النفس رامت خطة لا تنالها
إذا طلعت شمس النهار فسلمى فآية تسليمى عليك طلوعها
بعشر تحيات إذا الشمس أشرقت وعشر إذا اصفرت وحان رجوعها

❑❑❑

قيس ولبنتاه.. والموت كمدا [٣ - ٣]

عاد قيس من الحج حزينا يائسا.. وأصابه المرض حتى كاد أن يقتله، فاستنكر أهله حاله، وما أوصل نفسه إليه، فعاتبهم على ما يقولون وأرجع السبب إليهم وخاصة أبويه، وحزنت أمه عليه حزنا شديدا.. وحاولت التسرية عنه، وأرسلت له بفتيات من عشيرته يمازحنه ويعبن لبنى عنده.. فيما هو كأنما لا يراهن ولا يسمعهن، فلما أطلن عنده انتبه لهن وعاتبهن.. مواسيا نفسه.. قائلا:

يقر بعينى قربها ويزيدنى
بها كلفا من كان عندى يعيبها
فيا نفس صبرا لست والله فاعلمى
بأول نفس غاب عنها حبيبها

وفعل أبوه ما فعلته أمه.. حيث طلب من بعض فتيان وفتيات القبيلة أن يعدنه ويحدثنه لعله يتسلى عن ذكر لبنى ولكن دون جدوى.. فأحضروا له طبيبا ليداويه وسأله سبب علته.. فأجاب:

عيد قيس من حب لبنى ولبنى ... داء قيس والحب داء شديد
وإذا عادنى العوائد يوما ... قالت العين لا أرى ما أريد
ليست لبنى تعودنى ثم أقضى ... إنها لا تعود فيمن يعود
ويح قيس لقد تضمن منها ... داء خبل فالقلب منه عميد

فنصحه الطبيب أن يتذكر مساوئها ومعايبها.. فعندها سوف تنفر منها نفسه ويسلوها عقله ويتداوى من حبها قلبه، ولكن هيهات.. فسرعان ما أنشد قيس:

إذا عبتها شبهتها البدر طالعا

وحسبك من عيب لها شبه البدر

لقد فضلت لبنى على الناس مثلما

على ألف شهر فضلت ليلة القدر

وبعدما طال المرض على قيس واشتد أثره عليه، أشار بعض القوم على أبيه أن يزوجه بأخرى.. وعليه أولا أن يطلب منه الخروج إلى أحياء العرب المختلفة والنزول عليهم لعل عينيه تقعان على فتاة أجمل من لبنى فيعجب بها.

ولكن قيسا رفض.. فأقسم عليه أبوه أن يفعل، فسار حتى نزل قبيلة فزارة، فرأى فتاة حسناء وكأنها البدر فى طلعته، فسألها عن اسمها.. فأجابته: لبنى، فسقط مغشيا عليه، فصبت على وجهه الماء حتى أفاق وعرفها بنفسه فناشدته بالله أن ينزل عندهم.. حتى حضر شقيقها فأكرمه وحلف عليه أن يقيم عندهم شهرا، وعرض عليه مصاهرته، فرد قيس بأنه مشغول بأخرى..ويخشى أن يظلم أخته.. وهو معجب بها، ولكن الفتى ألح عليه، وأهله يلومونه أن يعيبهم العرب لذلك، ولكنه استمر فى دعوته قائلا (مثل هذا الفتى يرغب الكرام) وعرض أن يدفع مهر شقيقته، ولكن قيسا رفض وتوجه إلى قومه وأخبرهم بما حدث..

فسعدوا بذلك.. وأمهروا الفتاة مهرا كبيرا.. وتم الزواج وأدخلوا عليه زوجته فلم يهش لها ولم يدن منها، ولم تمتد يده إليها وبعد أيام قليلة طلب الرحيل إلى أهله وترك زوجته عند أهلها.

وعلمت لبنى «الحبيبة» بما حدث، فقررت إطاعة أهلها فى الزواج بما يعرضونه عليها، فقد نكث قيس الوعد ونقض العهد، وعندما علم قيس بذلك، حاول الاتصال بلبنى ولكن أهلها منعوها من ذلك وهددوها بقتله إن فعل، وقد أذن لهم الأمير بذلك، فأرسلت إليه تحذره.. فقال:

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها
مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يمنعوا عينى من دائم البكا
ولن يذهبوا ما قد أجن ضميرى
إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى
ومن حرق تعتادنى وزفير
ومن ألم للحب فى باطن الحشا
وليل طويل الحزن غير قصير

وعندما سمع قيس بزواج لبنى وأنها زفت إلى زوجها بالفعل ركب ناقته متوجها إلى ديار قومها، فاعترضته النساء وعاتبته، وكذلك فعل فتيان حيها.. وطلبوا منه الرحيل، ولما سمعت لبنى ما حدث معه أرسلت إليه رسولا ليسأله: لم تزوج بغيرها؟ فقص عليه قيس ما حدث.. وحلف له بأنه لو رأى زوجته الجديدة بين النساء ما عرفها.. فلم

تتكحـــل عينـــه برؤيتها.. ولا كلمها ولا نظر لها.. فأخبره الرســـول بأن لبنى مازالت على العهد.. فأرسل معه بعض أبياته يقول فيها:

أصـونـك عـن بعـض الأمور مظنة
وأخشى عليك الكاشحين الأعاديا
تسـاقط نفـسى حيـن ألقاك أنفسا
يـزدن فمـا يصـدرن إلا صـواديا
وبيـن الحشـا والنحـر منى حرارة
ولوعـة وجـد تتـرك القلب ساهيا

وعندما علم زوج لبنى بما بينهما من مراسـلات ورسل وأشعار أنبها على ذلـك.. فغضبت.. وأخبرته أنه كان يعلـم بزواجها من قيس وأنه أكره على طلاقها.. وما تزوجته هو إلا حماية لقيس من القتل!

ومـرت الأيام.. وعاود المرض قيســا، وأصبح لا يفيق من غشـيانه، وعندما كان يفيق.. يعود لذكرها ويردد:

وإن تـك لبنـى قد أتى دون قربها حجاب منيع مـا إليـه سـبيل
فـإن نسيـم الجـو.. يجمع بيننا ونبصر قرن الشمس حيـن تـزول
وأرواحنا بالليل فى الحى تلتقى ونعلـم أنـا بالنـهار نـقيـل
وتجمعنـا الأرض القرار وفوقنـا سمـاء نـرى فيهـا النجوم تجول

ولقد بلغ أهل زوجته الثانية خبره.. واستمرار علاقته بلبنى الأولى.. فكتبوا إليه يعاتبونه، فقال لرسولهم: إننى مشغول عن كل أحد.. وأبلغ

أخاها أننى فوضت الأمر إليه فليحكم فيه بما يرى.. ورفض الفزارى أن يفرق بينهما، ولم تلبث شقيقته أن ماتت!

ويقول الرواة إن الحسين بن على شقيق قيس فى الرضاعة تدخل هو وشقيقه الحسن وطلبا من زوج لبنى تطليقها وعوضوه عن ذلك بمال كثير، ثم طلبا من أبيها بأن يردها إلى قيس.. ففعل.. والتقى الشتيتان بعد أن ظن كل الظن أن لاتلاقيا، ولكنها سرعان ما ماتت أيضا!

فتتبعها قيس فى جنازتها يندبها ويبكيها ويقول:

ماتت لبينى فموتها موتى هل تنفعن حسرتى على الفوت
وسوف أبكى بكاء مكتئب قضى حياة وجدا على ميت

ثم انكب على القبر نائحا حتى أغشى عليه.. فحمله أهله إلى منزله.. فما مكث غير قليل.. عليلا لا يفيق حتى مات ودفن بجوارها..

رحمة الله على الثلاثة.. قيس ولبنتاه.

❑❑❑

١ - جميل وبثينة.. والحب صدفة

لا تختلف قصة حب جميل بن معمر وبثينة بنت حبأ عن قصص باقى «العشاق» من بنى عذرة، سوى أنها بدأت مصادفة.. وبعد مشاجرة وعتاب، ثم شعر وحب!

فقد تصادف أن كان جميل بأحد الأودية القريبة من المدينة المنورة يروى إبله من بئر الماء التى تسقى منها أيضا عشيرة بثينة، وأثناء مرورها مع صاحبات لها نقرها بعير.. فاستشاطت غضبا وأساءت القول لجميل، فتبادلا العتاب.. ثم انصرفت بعد أن أعجب بها جميل.. ووقع فى قلبه حبها.. وبدأ ينظم فيها الشعر ويقول فيها الغزل، وعندما علمت بثينة بذلك بادلته حبا بحب..وأخذا يلتقيان ويتشاكيان من شدة الوجد.. وعذاب الحب.

وبعد حين وشت بها جارية لها وأخبرت أباها وأخاها بما بينهما، وأعلمتهما موعد لقائهما، فتربصا بهما فلاحظا جلوس جميل بعيدا عنها وعلى مسافة تسمع منها حديثه وسمعاه يطلب منها أن تجازيه على حبه لها، فسألته: بماذا؟ فقال: بما يكون بين المحبين، فأنكرت عليه طلبه، فأخبرها: أنه ما أراد منها قبيحا، إنما أراد أن يختبرها.

وأضاف أنه لو كان رأى منها غير ذلك لضربها بسيفه وهجرها إلى الأبد.. ثم قال:

وإنى لأرضى من بثينة بالذى
لو أبصره الواشى لقرت بلابله

بـلا، وبـأن لا أستطيـع، وبالمنـى
وبالأمـل المـرجـو قـد خـاب أمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى
أواخـــره لا تـلتقـى وأوائلـه

وعندمـا سمع أبوها وأخوها ذلك.. انصرفا وتركاهما، فلم يريا منهما ريبة ولا عيبا فهما أبناء عمومة.

وأكمل جميل حديثه.. معبرا عن حبه بقوله:

لقـد قلت فى حبى لكم وصبابتى محاسـن شعـر ذكـرهـن يطـول
فـإن لـم يكـن قولى رضاك فعلمى هبوب الصبـا يابثن كيف أقـول
فما غاب عن عينى خيالك لحظة ولا زال عنهـا، والخيـال يزول

وظلا يتحدثان حتى فاجأهما الصبح.. فسلما وودعا.

وكعـادة الفتيات عندما تتدلل وتختبر المحـب.. فقد حاولت بثينة التقرب من أحد فتيان العشـيرة فى وجود بعض النسـوة وكأنها تطلب منهـن أن يخبرن جميل بما حـدث، وعندما علم جميـل بذلك.. قال معاتبا:

وعدنـا كأنـا لـم يكـن بيننـا هوى وصار الذى حل الحبال هوى لها
وقالـوا نراهـا يـا جميـل تبدلـت وغيرها الواشـى، فقلـت: لعلهـا

ولكن بثينة تمادت فى ذلك.. لعلها تزداد يقينا من حب جميل لها.. خاصة بعد أن علمت ما قاله فيها:

يـاليتنـــى ألقـــى المنيـــة بغتـــة إن كـــان يـــوم لقـائكـم لـم يقدر
أو أستطيـــع تجلـــدا مـن ذكركم فيفيـق بعـض صبابتى وتفـكرى
يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت يتبع صـداى صـداك بيـن الأقبر

ورقت له بثينة.. وتواعدا..وتعاتبا.. فأنشد جميل:

لقد خفت أن يغتالنى الموت عنوة
وفى النفس حاجات إليك كما هيا
وإنـى لتثنينـــى الحفيظـة كلمـا
لقيتـــك يومـا أن أبثـك مـابيـا

وكما هى عادة العرب فى تلك الفترة.. فبعد أن انتشـر شـعر جميل فى بثينة وهو ما يسـمونه «التشبيب» فقد منعوها من لقائه.. وحذروه.. وهددوه بالقتل إن لم يرتدع، ولكنه لم يمتنع.. وأخذ يقول:

فليت رجالا فيك قد نذروا دمى وهمـو بقتلـى يابثـن لقـونـى
إذا مـا رأونـى طالعـا مـن ثنية يقولـون: مـن هـذا وقد عرفونى
يقولون لى: أهلا وسهلا مرحبا ولو ظفـروا بـى سـاعـة قتلونى

وظل جميل ممنوعا من رؤية بثينة مدة طويلة، وكان يسـتعيض عن ذلك بالمبيت عند شـجرة قريبة من حيهـم، وأحيانا كان يمتد ذلك إلى ثلاثـة أيام متواصلة، وعندما علمت بثينة بذلك.. غافلت أهلها وذهبت إليه، فسلما على بعضهما سلاما حارا ثم جلسا صامتين حتى طلع الصبح فودع كل منهما الآخر.. وقد عبر عن ذلك جميل فى أبيات جميلة منها:

وإن تك قد شطت نواها وقد نأت
فإن النوى مما تشت وتجمع
وإن يك طول الحب يا قلبى نافعى
فقد طالما أحببت والصبر أنفع
ولست كمن يفشى على الخدن سره
وعندى له فى الصدر سر وموضع
وأنسى إذ لاقيتها بخلائها
من القول ما قد كنت بالأمس أجمع
فيارب حببنى إليها وأعطنى
منها المودة أنت تعطى وتمنع
وإلا فصبرنى وإن كنت كارها
فإنى بها يا ذا المعارج مولع
وفى الصبر عن بعض المطامع راحة
إذا لم يكن فى الشىء نرجو مطمع

طال المنع.. وتعذر اللقاء.. فلم يجد جميل بدا للخلاص مما يعانيه من عذاب الفراق ولوعة الحب، سوى التقدم لخطبة بثينة من أبيها.. ولكن هيهات فالعرب كانوا يكرهون من يشبب ببناتهم، وتقدم لخطبتها ابن عم لها يسمى نبيه.. فوافق أبوها، ودخل بها على كره منها، وعلم جميل بما حدث.. فبكى بكاءشديدا..وأخذ ينشد وكأنه يندب:

أنت حديث النفس إن كنت خاليا
وجل حديثى أنت فى الجدل والهزل

فـلا تقتلينـى يـا بثيـن فلـم أصـــب
مـن الأمـر مـا فيـه يحـل لكم قتلى
ويـارب لا تجعـل بثينـة شقـــوة
علىَ ولا تجعـل بهجـرانهـا قتلـى

□□□

٢ - جميل وبثينة .. والموت حزنًا

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل
إلى اليـوم ينمـى حبهـا ويـزيد
وأفنيـت عمرى فى انتظار نوالها
وأبليـت فيهـا الدهر وهو جديد
فقد تلتقـى الأشتـات بعـد تفرق
وقـد تـدرك الحاجات وهى بعيد
يمـوت الهـوى منى إذا ما لقيتها
ويحـيا إذا فارقـتهـا فيعـود

هكذا كان حال جميل بعد زواج بثينة.. ذكرى.. وعتاب.. وأمل فى اللقـاء.. ووصف لحاله، وكيف تشـتعل نار الحب فـى قلبه مع الفراق وسرعان ما تنطفىء مع اللقاء.

وكذلك كانت بثينة لم تنسـه.. ولكنها كانت تتابع أخباره وتسـأل عن أشعاره، وكانت تبعث إليه برسائلها من خلال جارية مؤتمنة لها.

وفى ليلة ظلماء تسـلل جميل إلى خيام بثينـة.. وكان زوجها غائبا ومعها عجوز من قبيلتها.. فنادى عليها فأدخلته إلى خيمتها وهو يقول:

لهـا فى سـواد القلـب بالحـب ميعـة
هـى المـوت أو كادت على الموت تشرف

وما ذكـــرتك النفـــس يابثـــن مـــرة
مـــن الدهـــر إلا كـــادت النفـــس تتلف
وإلا اعـــــترتنـــى زفـرة واستكـــــانة
وجـــاد لهـــا سجـل من الدمع يذرف

وتحدثـا طويلا.. حتى غلب عليهما النوم، وفى الصباح جاءها غلام مـــن القبيلـــة بصحن فيه لبن فرآهـــا نائمة وبالقرب منهـــا جميل ومعها العجوز فسارع ليخبر أهلها فلقيته أختها وكانت تعلم بما حدث فعطلته عن غرضه، وبعثت بجارية لها لتنبه بثينة من الخطر الداهم، فأيقظتها وطلبت بثينة من جميل سرعة الانصراف حتى لا يدركه القوم، فودعها باكيا.. وهو يقول:

ألا أيهـا البيـت الـذى حيل دونه
بنا أنت من بيت وأهلك من أهلى
ثلاثـــة أبيـــات، فبـــيت أحبه
وبيتـان ليسـا من هواى ولا شكلى
كلانـــا بكـــى أو كـاد يبكى صبابة
إلى إلفـــه واستعجـلت عبـرة قلبى
خليلـى فيمـا عشتمـا هـل رأيتما
قتيـــلا بكـــى مـن حب قاتله قبلى

وقـــد اشـــتكى زوج بثينة إلى أبيها وأخيها مـــن محاولات جميل فى الاقتراب من بيته ولقاء زوجته، فأرســـلوا إلى جميل وعشـــيرته ينذرونه

ويتوعدونه، فلامه أهله على ما يفعل وطلبوا منه نسيانها.. فأجابهم بأنه لا يستطيع ذلك.. حيث إنها:

غـراء ميسـاء كأن حديثها در تحـدر نظمـه منثـور
لا مثلها حسن ولا كدلالها دل ولا كـوقـارهـا توقيـر

فطلـب أهلـه، من ابنى عمومتـه كان يأنس لهمـا أن ينصحاه وأن يحاولا أن يرداه عن غيه.. وعندما فعلا ذلك رد عليهما باكيا:

لقد لامنـى فيهـا أخ ذو قـرابة
حبيـب إليـه فى ملامتـه رشـدى
وقـال أفـق حتـى متـى أنـت هائم
ببثـنة فيهـا قـد تعـيد وقـد تبدى
أفـى النـاس أمـثالى أحبوا فحبهم
كحبـى أم أحببـت من بينهم وحدى
وهـل هكـذا يلقـى المحبون مثل ما
لقيـت بهـا أم لـم يجـد أحد وجدى
إذا ما دنـت زدت اشتيـاقا وإن نـأت
جزعـت لنـأى الـدار منهـا وللبعـد

وقـد مرت على جميل أيـام وليالى عديدة لم يسـتطع فيها الذهاب إلى ديـار بثينـة ولا رؤيتها، فعزم أن يذهب إلى بلد بعيد لعل يكون فيه السـلوى مما يعانيه، ورحل إلى الشـام ومدح خلفاء بنـى أمية فوصلوه

ومنحـوه عطاياهم، ولكن ظلت ذكرى بثينة لا تفارقه.. فعزم مرة أخرى فـي الذهاب إلى مصر وكان يسـمع عن عبد العزيـز بن مروان والى مصر وأنه يحسن استقبال الشعراء ويبالغ فى إكرامهم فتحايل على لقاء بثينة لوداعها.. وعندما انصرف عنها بكى وأنشد:

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها ... يلـذان فـى الدنيـا ويغتبطـان
أصلى فأبكـى فى الصلاة لذكرها ... لى الويـل مما يكتـب الملكـان
ضمنـت لهـا ألا أهيـم بغيـرها ... وقـد وثقـت منـى بغيـر ضمان
ألا يا عبـاد الله قـومـوا لتسمعـوا ... شكـاية معشـوقيـن يشتكيـان
يعيشـان فى الدنيا غريبين أينما ... أقامـا وفـى الأعـوام يلتقيـان

ووصل جميل إلى مصر وأحسـن أميرها اسـتقباله، ولكن سـرعان ما مرض مرضا شديدا قضى فيه نحبه، وأثناء مرضه لقاه رجل من عشيرته فحملـه أمانة بعد وفاته وهى أن يلبس ثوبه ويركب ناقته.. ويمر بخيام بثينة ويردد هذه الأبيات:

صـرخ النعى وما كنى بجميل ... وثـوى بمصـر ثـواء غير قفول
صـرخ النعى بفارس ذى همة ... حلـو الشمائـل للرجـال قتول
قومـى بثينـة فانـدبى بعـويل ... وابكى خليلك دون كل خليل

ونفـذ الرجل الوصية.. وسـار فى ديار بثينة يـردد أبيات جميل، وسمعت بثينة ما يقول فسـقطت مغشـيا عليها، وعندما أفاقوها أخذت تبكى وتندب ومعها نساء القبيلة ثلاثة أيام.. وكانت تقول:

وإن سلوى عـــن جميـــل لســـاعة

من الدهر ما حانت ولا حان حينها

سواء علينـا يا جميـل بـــن معمـــر

– إذا مـت – بأسـاء الحيـاة ولينها

واســتمرت تردد هذين البيتين حتى قضى عليهـــا الحزن واليأس.. وماتت!

رحم الله العاشقين

□□□

عروة وعفراء.. والموت غدرًا

وفى عـروة العـذرى إن مـت أسـوة
وعمـرو بن عجلان الذى قتلت هند
وبــى مثــل ما نــابه غيــر أننــى
إلى أجــل لــم يأتنــى وقتــه بعــد
هــل الحــب إلا عبــرة بعد زفــرة
وحــرّ علــى الأحشاء ليس لــه برد

هذه أبيات لقيس ابن ذريح قالها فى شاعر محب آخر، كان يضرب به المثل، إنه الشاعر العذرى عروة ابن حزام من بنى غدرة، الذى مات شهيد العشق، بعد أن قتله الحب لابنة عمه عفراء، وكان أبوه قد مات وتركه وعمره أربع ســنوات، فتولى عمه تربيته مع ابنته، فنشــأ معها.. يلعبان.. ويكبران معا حتى ألف كل منهما الآخر.

وكان عمه يبشــره بأن عفراء زوجته إن شــاء الله، وعندما بلغ عروة ســن الزواج طلب من عمته أن تتوسط له لدى عمه وتخطب منه عفراء، فــتردد الرجل فــى الموافقة لأن عروة كان فقيرا، وكانت أم عفراء تكرهه وتتمنى أن تزوج ابنتها من رجل موســر، خاصة أن عفراء كانت جميلة وحسناء.. ويتمناها كثيرون.

وحاول عــروة مع عمه وزوجته دون جــدوى.. فقد كان حالهما من

حالته.. فقراء.. فلم يجد أمامه مخرجا سوى السفر إلى إيران لمقابلة ابن عم له موسر، لعل وعسى.. واصطحب معه رفيقين.. من أصدقائه بعد أن أخذ على عمه تعهدا بألا يزوج عفراء من غيره..

وفى أثناء السفر كان عروة دائم التفكير.. قلقا.. مما قد تأتى به الأيام.. وكان يردد:

تحملت من عفراء ما ليس لى به
ولا للجبال الراسيات يدان
فيارب أنت المستعان على الذى
تحملت من عفراء منذ زمان
كأن قطاة عُلقت بجناحها
على كبدى من شدة الخفقان

واستمر فى هيامه.. وقلقه.. حتى أتى ابن عمه، فوصله وأكرمه وأعطاه مائة من الإبل، فانصرف بها عائدا إلى أهله وقومه.

ولكن الرياح دائما تأتى بما لا تشتهى السفن، فقد تصادف أن رجلا من الشام نزل فى حى عفراء، فذبح بعيرا ووزع لحمه على الناس، وكان ظاهر الثراء، وأثناء وجوده مع القوم لمح عفراء وهى حاسرة الوجه، فسأل عنها من هى، فعرض على أبيها خطبتها.. فأجابه بأنها مخطوبة لابن عمها، فعرض على الأم وزاد فى المهر فوافقت، أما عفراء فأخذت تبكى وتقول:

يا عروة إن الحى قد نقضوا عهد الإله وحاولوا الغدرا

وعندما أتى فى الليل زفت عفراء إلى زوجها ودخل بها، وأقام معهم ثلاثة أيام، ثم اصطحبها إلى الشام، وفكر أبوها ماذا يفعل مع ابن شقيقه عندما يعود، فاهتدى إلى قبر قديم فجدده وطلب من القوم أن يكتموا الخبر، ولما عاد عروة أخذ عمه يبكى وينعى إليه عفراء، وخُدع العاشق الولهان وكان يذهب إلى القبر ويلصق خده به ويبكى وينتحب، فرق لحاله بعض النسوة وأخبرنه بحقيقة ما حدث، وبعدما تأكد من صحة ما أخبره.. قال:

فيا عم يا ذا الغدر ما زلت مبتلى
حليفا لهم لازم وهوان
غدرت وكان الغدر منك سجية
فألزمت قلبى دائم الخفقان
وأورثتنى غما وكربا وحسرة
وأورثت عينى دائم الهملان

ولم يجد عروة بدا من الرحيل إلى الشام.. حيث عفراء.. لعله يحظى بنظرة.. فيشفى غليله ويهدأ باله ويرتاح قلبه، وسأل عن منزل زوج عفراء.. فوصله وأحسن الرجل استقباله وأكرم ضيافته.. وبعد يومين أو أكثر تحايل مع الخادمة حتى علمت عفراء بوجوده، وأخبرت زوجها بحقيقة ضيفه وأنه ابن عمها وحبيبها وخطيبها السابق، فعاتبه الرجل على كتمان سره وخرج وتركه مع زوجته يتحدثان، فلما خليا تبادلا العتاب والشكوى من بعد الفراق، وبكيا وتعهد عروة بالرحيل خجلا

من الرجل الذى أكرمه، وعندما حضر الزوج وعلم بنيته طلب منه البقاء وعدم السفر، إلا أن عروة أصر ومضى عائدا إلى قومه.. وكان يردد:

بنـا مـن جـوى الأحـزان والبعد لوعة
تكـاد لهـا نفـس الشفيـق تـذوب
وما عجبى موت المحبين فى الهـوى
ولكـن بقـاء العـاشقيـن عجـيب

ومـا إن وصل إلى قومه حتى أصابه الخبـل.. وأخذ يهذى فى كلام ولا يفهـم منه أحد ما يقول.. واشـتد به المرض ونحل جسـمه، فطاف بـه أهله على عرافين فى منطقتـى اليمامة والحجر ولكن دون جدوى.. وكان يسـألهم هل عندهما للحب دواء أو رقية، وكانا يجيبانه بالنفى، فانصرف عنهما.. وهو يقول:

جعلـت لعـراف اليمـامة حكمه وعـراف حجـر إن همـا شفيـانـى
فقالا: نعم.. نشفى مـن الداء كله وقامـا مـع العـواد يبتـدرانِ
فمـا تركـا مـن رقيـة يعلمانهـا ولا سلـوة إلا وقـد سقيـانـى
وقـالا: شفـاك الله، والله مـا لنـا بمـا حملـت منـك الضلوع يدانِ

وظل عروة على حاله من المرض.. والناس تعوده، والموت يروح ويغدو بين عينيه، حتى فاضت نفسه.. إلى بارئها، وعندما علمت عفراء بموته استأذنت من زوجها وعادت إلى قومها.. وأخذت تندب عروة ثلاثة أيام بجوار قبره وهى تقول:

فلا لقـى الفتيان بعـدك راحة ولا رجعـوا من غيبـة بسلام

ولا وضعت أنثى تماما بمثلـــه ولا فرحت من بعـده بغـــلام

وظلـت علـى حالها تردد الأبيـات وتبكى.. حتـى فاضت روحها ودفنت إلى جانبه..

رحم الله العاشقين.. وغفر لمن غدر بهما!

□□□

كُثير وعزة.. قليل من الحب.. كثير من الشهرة

هذا الشاعر المحب.. كُثير الخزاعى، سمى باسم محبوبته عزة الحاجبية، نظرا لكثرة ما قاله فيها من الشعر الغزلى، والطريف أنه كان شديد القصر، وكان البعض يستهزئ به لذلك، حتى إن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان كان يقول له عندما يدخل عليه: طأطأ رأسك حتى لا يصيبك السقف! ولكن كُثير كان شديد الاعتداد بنفسه ويمشى فى خيلاء وزهو، وكان يتحدى من يعايره بقصره بقوله:

وإن أك قصرا فى الرجال فإننى إذا حل أمر ساحتى لطويل

المهم أنه كان شاعرا مجيدا مبدعا، ولكنه أيضا- كما قيل- كان فى العشق منافقا.. متقولا مقارنة بالمجنون وجميل وعروة وغيرهم ممن أدمنوا العشق.. فماتوا فداء للمحبوب!

ولقد تعرف كُثير بعزة أثناء مروره على خيام قومها متجها إلى السوق لبيع بعض غنمه، حيث أرسلتها بعض النسوة إليه لشراء كبش منه ووعدته بسداد ثمنه عند عودته، ولكنه استملحها ووقع حبها فى قلبه، وعندما رجع وسأل عنها جاءته امرأة أخرى بدراهم ثمن الكبش، فأصر على رؤيتها قبل أن يأخذ دراهمه.. وهّم بالانصراف وهو يقول:

قضى كل ذى دين فوفى غريمه

وعزة ممطول معنًّى غريمها

أى أن الحكاية ليست حكاية دراهم معدودات هو فيها من الزاهدين.. ولكنه العشق من أول نظرة..

نظرت إليها نظـرة وهى شاخص
علـى حين أن شبـت وبان نهـودها
نظـرت إليهـا نظـرة مـا يسـرنى
بهـا حمـر أنعـام البـلاد وسـودها

وعندمـا سمعت عزة ذلك ظهـرت له وتبادلا الحديث.. وأحبته بعد ذلك أكثر بما شعرت أنه يحبها.

ولكـن بمررو الأيام شـعرت أنه ليس صادقا فى حبـه، فأرادت أن تمتحنه، فانتقبت ومرت به وهى تتمخطر فى مشيتها، فلم يعرفها وسار خلفهـا يردد بعض كلمات الإعجاب، فوقفـت وقالت له: وهل تركت فيك عزة بقية لأحد؟ وأين قولك فيها:

إذا وصلتنا خلة كى نزيلها أبينا وقلنـا الحاجبية أول

ولكنه سـرعان ما وقع فى الفخ! حيث طلب منها أن تقصر كلامها وتكف عن ذكر عزة، وأن تسمع ما يقوله فيها هى:

ما وصـل عـزة إلا وصـل غـانيـة فى وصل غانية من وصلها خلفُ

فكشـفت عن وجهها وأسمعته كلاما قاسيا واتهمته بالغدر والفسق، واستشهدت بأشعار لجميل بثينة وكان صديقه والذى يقول فيه:

لحـى الله من لا ينفع الود عنده ومن حبلـه إن مـد غيـر متيـن

ومن هو ذو وجهين ليس بدائم على العهد حلاّف بكل يميـن

فأخذ كثير يعتذر إليها ويطلب السماح والعفو.. واصفا ما قاله بمجرد كلمات جوفاء.. وأنها لابد أن تصدقه وسألها: ألم تسمعى قولى فيك:

يزهـدنـى فـى حـب عـزة معشـر
قلـوبهـم فيهـا مخـالفـة قـلبـى
فقلـت دعـوا قلبـى ومـا اختـار وارتضـى
فبـالقلـب لا بالعيـن يبصـر ذو اللـب
وما تبصـر العينـان فـى موضـع الهوى
ولا تسمـع الآذان إلا مـن القلـب

ولكنها لم ترض.. وانصرفت غاضبة، وبعد فترة عاودت الكرة وطلبت من بثينة صاحبة جميل.. التخفى ومحاولة مراودة كُثير.. إلا أن الأخير كان منتبها وأسمع بثينة قوله:

رمتنـى علـى عمـد بثينـة بعدما
تولى شـبابى وأقبلـن شبابهـا
بعينين نجـلاوين لـو رقرقتهما
لنجـم الثـريا لاستهـل سحابهـا
ولكنمـا ترميـن نفسـا مريضـة
لعـزة منهـا صفـوها ولبابهـا

فضحكت بثينة.. وقالت له: نجوت.. يا كُثير!

وتصادف أن تغيب كُثير عن عزة فترة طويلة ذهب فيها إلى الشام يمدح أمراء بنى أمية لعله يصيب منهم بعض المال يساعده على الزواج، وفى تلك الأثناء تقدم لعزة فتى من قومها لخطبتها فوافقت.. ثم تزوجته بعد أن طال غياب كُثير وتشككها فى إخلاصه لها، وعندما عاد من غربته وسمع بما حدث أنشد:

ما كنت أدرى قبل عزة ما البكا
ولا موجعات القلب حتى تولت
كأنى أنادى صخرة حين أعرضت
من الصم لو تمشى بها العصم زلت

وحزن أشد الحزن.. وكان يخرج إلى الصحراء هائما على وجهه لعله يستطيع السلوان، ثم تصادف أن ذهب إلى الحج، وكانت عزة وزوجها يحجان أيضا، وطلب منها زوجها أن تبحث فى الخيام المجاورة عن من يبيع سمنا لتعد طعاما له ولمن معهم، فأخذت تبحث وتسأل حتى رأت كُثير يقف بإحدى الخيام يبرى سهاما له، فلما رآها نسى نفسه، وبرى إصبعه حتى سال منها الدم فجرت نحوه وأخذت تمسح دمه بثيابها وسألها عما تبحث وحلف عليها أن تأخذ ما عنده من سمن بالكامل، ولاحظ زوجها الدم بثيابها، وسألها عنه فأخبرته بما حدث، فأخذها من يدها حتى وصلا مكان كُثير وطلب منها أن تسبه فشتمته وهى تبكى.. وكُثير يعلم سبب بكائها ويقول:

يكلفها الغيران شتمى وما بها هوانى ولكن للمليك استنذلت

هنيئا مريئا - غير داء مخامر- لعزة من أعراضنا ما استحلت
وقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوما لها النفس ذلت

وبعد العودة من الحج.. مرضت عزة مرضا شديدا، وعندما سمع كُثير بما أصابها ذهب ليسأل عنها وينشد:

يقولون سوداء العيون مريضة فأقبلت من أهلى إليها أعودها
فوالله ما أدرى إذا أنا جئتها أأبرئها من دائها أم أزيدها
إذا جئتها وسط النساء منحتها صدودا كأن النفس ليس تريدها
ولى نظرة بعد الصدود من الجوى كنظرة ثكلى قد أصيب وحيدها

ولكن عزة تعافت، ومرض كُثير.. ومات.. وخرجت مع العديد النسوة يبكينه ويندبنه.. وهن حزانى.

□□□

ديك الجن!

شـاعر عربى كبير.. ينطبق عليه القـول المأثور (ومن الحب ما قتل) فقـد دفعه لهيـب الحب وجنون الغيرة إلى قتـل زوجته (ورد) وصديقه (بكـر) بعد أن تعرض لمؤامرة من أقاربه، لا تختلف كثيرا فى تفاصيلها عما تعرض له عطيل وحبيبته (ديدمونة) ولكن شاعرنا المحب لم يكتف بذلك، بل صنع من رماد جسديهما كأسين لشرب الخمر!

إنه الشـاعر عبد السـلام بن رغبـان، الذى عاصر العصر العباسـى ووصف بعطيل العرب، فقد كان متيما بفتاة حسـناء شغفت قلبه حبا.. وكان يقول:

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى
فصـادف قلبا خاليـا فتمكنـا

وقـد توجـت قصة الحب بينهمـا بالزواج على الرغـم من اختلاف الديانة، وأهداها (زجاجة) من العطر صنعت خصيصا لها من قبل عطار مشهور بالشام، ولكنه قبل أن يسعد بصحبتها ويهنأ برغد العيش معها، اضطر إلى السـفر لزيارة صديقه المريض بدمشـق، فأخـذ يودع حبيبته وزوجته.. وهو يقول:

ودعتهـا لفـراق فاشتكـت كبـدى إذ شبكـت يـدهـا مـن لوعة بيدى
وحاذرت أعين الواشين فانصرفت تعـض مـن غيظها العناب بالبرد

فقد خفق قلبه وتألم كبده وهو يودعها، وهى ممسكة بيده وتعض بأسنانها على شفتيها من لوعة الفراق.

ولأن شاعرنا الذى لقب بديك الجن لفصاحته وذكائه وجمال أشعاره التى كان دائما ما ينشدها عند بزوغ الفجر، وقبل أن تصيح الديوك بمجيئه.. قد ورث مالا كثيرا عن أبيه كما كان مدمنا للخمر.. شديد الإسراف، ولم يكن له أشقاء، فقد طمع أبناء عمومته فى تلك الثروة وخشوا من ضياعها واستغلوا فرصة غيابه ودبروا مؤامرة للتخلص منه، ولأنهم يعلمون حبه الشديد لزوجته وغيرته المجنونة عليها، فقد طلبوا من ذات (العطار) الذى صنع زجاجة العطر للشاعر أن يصنع مثلها، وعندما علموا بقرب عودته من السفر، سارعوا بإهدائها لصديقه الحميم (بكر)، الذى فرح بها وتعطر منها، كما أعدوا له استقبالا خاصا، حيث جمعوا عددا من الأطفال وطلبوا منهم أن ينشدوا: ديك الجن.. سوف يجن.. ورد خانت ديك الجن.. واندهش الشاعر مما رأى وسمع ولذلك عندما التقى الصديقان واشتم الشاعر رائحة العطر الذى أهداه لزوجته على ملابس صديقه ساورته الظنون واعتقد أنه يخونه فبادر بقتله، ثم سارع إلى زوجته وقتلها أيضا وهو يقول:

أيهـــا القلـب لا تعـــد لهـــوى البيـــض ثانيـة
خنت ســـــرى ولـم أخنك فمـوتـى عـــــلانية!

وعندما حضرت خادمته وفوجئت بما حدث، حاولت إفهامه الحقيقة.. وأنه تعرض لكيدة خبيثة من أبناء عمومته، وأن صديقه وزوجته بريئان

مما ظنه بهما، وأحضرت لـه زجاجة العطر التى أهداها لزوجته فوجدها مغلقة ولم تستعمل من قبل، كما وجد زجاجة أخرى فى ملابس صديقه.. وعندما تكشفت له الحقائق كاملة.. أخذ يبكى ويصرخ.. لائما نفسه على ما جنت يداه.. محاولا الانتحار ولكن الخادمة منعته من ذلك، فطلب منها أن تروى قصته للناس بعنوان (عاشق ورد وقاتل صديقه).. وبعد أن هدأت نفسه.. أحضر الجثتين وحرقهما كلا على حدة، وصنع منهما كأسين مختلفين، وبدأ يتجرع منهما خمرا ممزوجا بالمرارة والعذاب وقلبه ينزف شعرا باكيا.. تتغنى به النائحات فى المآتم وسافحات الدمع عند القبور، وكان عندما يبدأ فى شرب الخمر.. يحضر الكأسين فى مجلسه، واضعا أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره.. وتارة ينظر إلى الكأس المصنوع من رماد زوجته وهو يقول:

يا طلعة طلع الحمام عليها
وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها الثرى ولطالما
روى الهوى شفتى من شفتيها

ثم تارة أخرى ينظر إلى الكأس المصنوع من رماد صديقه.. قائلا:

وقتلته وله على كرامة ملء الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدى به ميتا كأحسن نائم والحزن يسفح عبرتى فى نحره

وقضى حياته محزونا مكتئبا باكيا.. وكثيرا ما كان يرد على معاتبيه

لكثرة بكائه مع سوء فعلته.. يقول:

ويعذلنى السفيه على بكائى
كأنى مبتلى بالحزن وحدى
يقول قتلتها.. سفها وجهلا
وتبكيها بكاء ليس يجدى
كذباح الطيور له بكاء
عليها وهو يذبحها بحد

والغريب أن ديك الجن هذا رغم فداحة فعلته.. له أشعار فى غاية الرقة والجمال.. وتكشف عن نفس غارقة بالإيمان.. ومنها:

الخلق ماضون والأيام تتبعهم
تفنى ويبقى الإله الواحد الصمد

كما أنه محب لآل البيت متشيع لهم، ومما قاله فيهم:

يا صفوة الله فى خلائقه وأكرم الأعجمين والعرب
أنتم بدور الهدى وأنجمه ودوحة المكرمات والنسب

نعم كان متدينا.. وإنما كان أيضا محبا وعاشقا غيورا، لكنها غيرة مجنونة، وحب قاتل.. ومن الحب ما قتل!

وهذا الشاعر لم يأخذ حقه من الشهرة التاريخية رغم جمال أشعاره وهناك من تغنى بها كبار المطربين مثل ناظم الغزالى- العراق- وعبد الكريم الكابلى- السودان- ومنها أيضا ما تحول إلى مقولات تاريخية

يستشهد بها البعض فى المناسبات.. مثل:

دلائل الحب لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق

وأيضا:

تعترف النفس ببعض القوى فأمسك النفس ببعض الخداع

ولكن مشكلة شاعرنا عبدالسلام بن رغبان..أنه كان مدمنا للخمر.. مبذرا.. وقد ورث عن أسرته أموالا كثيرة.. وتربى فى حضن جده وجدته لأبيه.. والتى وضعت فى نفسه بذرة الشك من النساء.. وفهمته ألا يأمن لأية امرأة.. وإن كانت زوجته!

وكانت شدة إسرافه فى أموال العائلة سببا فى إثارة غضب أبناء عمه منه وطمعهم فيها وخوفهم من ضياعها.. فكادوا له كما فعل أخوة يوسف.. ومنهم الشاعر المعروف أبو الطيب المتنبى.. الذى اتهمه بالزندقة والفجور وأخذ يردد عنه ما قيل أنه من أشعاره:

أأترك لذة الصهباء عمدا لما وعدوه من لبن وخمر

وعندما علم شاعرنا بما يردده عنه ابن عمه أبو الطيب هجاه بشعر قاس:

يا عجبا من أبى الخبيث ومن سروجه.. فى البكائر الدثرة
سبحان من يمسك السماء على الأرض وفيها أخلاقك القذرة

المهم أن الخلاف بينهما انتهى بالخديعة.. والمؤامرة التى كانت نتيجتها قتله لصديقه وزوجته.. والتى قال فيها من قبل:

يأبى فم شهد الضمير له　　قبل المذاق بأنه عذب
كشهادتى لله خالصة　　قبل العيان.. بأنه رب

وأيضا:

والخال فى الخد إذ أشبهه　　وردة مسك على ثرى تبر

وكذلك:

عفّرت خدى فى الثرى طائعا　　وعزمت فيك على دخول النار!

بل حتى بعدما قتليها.. أخذ يرثيها بأشعار تذيب الدمع الجسور ومنها:

ما كان قتليها لأنى لم أكن　　أبكى إذا سقط الغبار عليها
لكن ضننت على العيون بحسنها　　وأنفت من نظر الحسود إليها

كما قال أيضا نادما متعذبا:

قال ذو الجهل قد حلمت　　ولا أعلم أنى حَلمت حتى جهلت
لائم لى بجهله.. ولماذا　　أنا وحدى أحببت ثم قتلت؟

رحم الله شاعرنا الكبير «ديك الجن» الذى واراه التراب وبقى لنا شعره نستمتع به ونرويه فى الملمات والمناسبات.

□□□

ليلى الأخيلية.. عشيقة توبة

نالت من الشـهرة حقها، لأنها كانت شاعرة مجيدة، ولأنها أحبت ابن عمها الشـاعر والفارس توبة الحميرى، ولم يتزوجها وظلا متحابين حتى ماتا على حبهما، إنها ليلى بنت عبد الله الرحال المشهورة بليلى الأخيليـة وهـو لقب لجدها من قبيلة بنى عامر التى اشـتهرت بالحب العُذرى بين أبنائها!

لقد رفض أبوها أن يزوجها من توبة بعد أن ذكرها فى شـعره، وهى عادة قديمة لدى العرب تسـمى «التشـبيب»، وزوّجهـا لرجل من بنى الأذلـع وكان غيورا، فى الوقت الذى لم يمتنع توبة عن زيارتها، فأخذ بنو الأذلع يترصدون له وعلمت ليلى بذلك فخرجت للقائه سافرة وعندما رآهـا على حالها علم أن القوم يريدونه فأسـرع بالهرب.. ومما قاله فى ذلك:

نأتـك بليلـى دارهـا لا تـزورها وشطـت نواهـا واستمـر مريرها
وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقـد رابنى منها الغـداة سفورها

ولم يجد زوجها حيلة معها غير طلاقها، فزوجها أبوها من آخر هو سـواز القشـيرى الملقب بابن الحبا، وكان شاعرا مخضرما من الصحابة وقد أنجبت منه العديد من الأولاد.

وقد اشـتهرت ليلـى فى عصرها (الأموى) وعرفـت الخلفاء والأمراء وكانت جميلة وشجاعة.. فخورة بنفسها وقومها:

نحن الأخايل لا يزال غلامنا حتى يدب على العصا مشهورا
تبكى الرماح إذا فقدت أكفنا جزعا وتعرفنا الرفاق بحورا

وتحكى كتب السيرة أنها دخلت على معاوية ابن أبى سفيان، فسألها عن توبة الحميرى، فقالت: كان يا أمير المؤمنين سبط البنان، حديد اللسان، نسجا للأقران، كريم المخبر، جميل المنظر، ثم أنشدت:

بعيد الثرى لا يبلغ القوم قعره
ألد بما قد يغلب الحق باطله
إذا حل ركب فى ذراه وظله
ليمنعهم مما تخاف نوازله
حماهم بنصل السيف من كل فادح
يخافونه حتى تموت خصائله

وكان توبة قد قُتل فى غزوة له على بنى عوف، حيث استولى على إبل لهم من راعيها، فلحقوا به وقتلوه وقطعوا رجل شقيقه ولهذا عندما استمع معاوية لشعر ليلى فى توبة قال لها: ويحك! لقد كان عاهرا خاربًا، فردت عليه:

معاذ إلهى كان والله سيدا
جوادا على العلات جما نوافله
عفيفا بعيد الهم صلب قناته
جميلا محياه قليلا غوائله

يبيت قرير العين من بات جاره

ويضحى بخير ضيفه ومنازله

فعقب معاوية: ويحك يا ليلى، لقد جزت بتوبة قدره، فقالت: والله يا أمير المؤمنين لو رأيته وخبرته لعرفت أني مقصرة في نعته وأني لا أبلغ منه ما هو أهله، فسألها: من أي الرجال كان؟ فقالت:

أتته المنايا حين تم تمامه وأقصر عنه كل قرن يطاوله

وكان كليث الغاب يحمي عرينه وترضى به أشبه الله وحلائله

غضوب حليم حين يطلب حلمه وبم زعاف لا تصاب مقاتله

فأمر الخليفة لها بجائزة عظيمة، وقال لها: خبريني بأجود ما قلت فيه من الشعر، فقالت: ما قلت إلا ما فيه من خصال:

جزى الله خيرا والجزاء بكفه فتى من عقيل ساد غير مكلف

فتى كانت الدنيا تهون بأسرها عليه ولا ينفك جم التصرف

وقد دخلت ليلى ذات مرة على الحجاج بن يوسف أمير العراق في عهد الوليد بن عبد الملك، فمدحته طمعا في عطائه، وقالت:

إذا هبط الحجاج أرضا مريضة

تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها

غلام إذ هز القناة سقاها

سقـاها دمـاء المـارقيـن وعلَّـهـا

إذا جمحـمـت يومـا وخيـف أذاها

إذا سمـع الحجـاج صـوت كتيبـة

أعـد لهـا قبـل النـــزول قـــراها

فقال لها الحجاج ألا تقولين: همام بدلا من غلام! وأمر لها بخمسمائة درهم وخمسة أثواب وخمسة جمال، فأنشدت مرة أخرى:

حجـاج أنـت الـذى لا فـوقه أحـد

إلا الخليفـــة والمستغفـــر الصمـد

حجاج أنت سنان الحرب إن نهجت

وأنت للنـاس فـى الداجـى لنـا تقد

فزادهـا الحجاج من عطاياه وقال لها أنشـدينا مـا قلت فى توبة: فأنشدته قولها:

فتـى كـان أحيـا من فتاة حيية وأشجـع مـن ليـث بخفان خادر

أتتـه المنـايا دون درع حصينـة وأسمـر خطـى وجـرداء ضـامر

فنعـم الفتـى إن كان توبة فاجرًا وفوق الفتـى إن كان ليس بفاجر

فقـال لها الحجـاج مداعبا: ألم يكن بينك وبينه ريبة قط أو خاطبك فـى ذلـك؟ فقالت: لا والله يا أمير إلا أنه قـال لى ليلة وقد خلونا كلمة ظننت منها شيئا فقلت له:

وذى حـاجة قلنا له لا تبح بها فليس إليهـا ما حييـت سبيـل

لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى فارغ وحليل

ثم أكملت: والله ما سمعت بعدها منه ريبة حتى فرقنا الموت، فقال لها الحجاج: فما كان منه بعد ذلك، قالت: وجه صاحبا له إلى خيامنا فقال: إذا أتيت خيام ليلى فاهتف بهذا البيت:

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة من الدهر لا يسرى إلى خيالها

فلما فعل الرجل ذلك عرفت المعنى وأجابت عليه:

وعنه عفا ربى وأحسن حفظه عزيز علينا حاجة لا ينالها

ومرت الأيام والشهور وتصادف أن مرت ليلى مع زوجها على قبر توبة وهى فى هودج لها، فقالت والله لا أبرح حتى أسلم على توبة، فحاول زوجها منعها من ذلك، ولكنها أصرت وصعدت على تبة مرتفعة عليها القبر وقالت: السلام عليكم يا توبة ثم حولت وجهها إلى من معها وقالت: ما عرفت له كذبة قط قبل هذا، قالوا: وكيف؟ قالت: أليس هو القائل:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
على ودونى تربة وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا
إليها صدى من جانب القبر صائح
وأغبط من ليلى بما لا أناله
ألا كل ما قرت به العين صالح

وأكملت: فما باله لم يسلم على كما قال! وكانت بجانب القبر بومة فلما رأت الهودج فزعت وطارت فى وجه الجمل، فنفر فرمى بليلى على رأسها، فماتت ودفنت إلى جانب حبيبها!

□□□

فَوزْ والعباس.. الحب والشك

أستغفر الله إلا من مودتكم فإنها حسناتى يوم ألقاه
فإن زعمت بأن الحب معصية فالحب أحسن ما يعصى به الله!

قائل هذه الأبيات هو الشاعر البغدادى العباس بن الأحنف وكان شاعرا غزليا لا يهجو ولا يفتخر، رافق الخليفة العباسى هارون الرشيد فى بعض غزواته فى خراسان وغيرها من البلاد التى فتحها العباسيون، وأحبه وزراء الخليفة وقائدو جيشه.. وعلى رأسهم محمد ابن المنصور والذى كان يدعو الشاعر إلى منزله حيث يتجمع عنده الأدباء والشعراء.. وتقف على خدمتهم جاريته المفضلة (فَوزْ) والتى كانت تحفظ الكثير من الشعر وأخبار العرب السابقين، ووقع الشاعر فى حبها.. وتملكه هواها من أخمص قدميه وحتى شعر رأسه.. بينما هى تتمنع وتتدلل ومن ثم كان كثير الشكوى والاستعطاف.

وقد طلب منه محمد بن المنصور فى أحد مجالسه أن يصف لهم الحب بعدما لاحظ علاماته عليه.. فأنشد العباس:

الحب أول ما يكون لجاجة تأتى به وتسوقه الأقدار
حتى إذا سلك الفتى لجج الهوى جاءت أمور لا تطاق كبار
نزف البكاء دموع عينك فاستعر عينا لغيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكى بها أرأيت عينا للبكاء تُعار

فاستحسن الحاضرون وصفه للحب.. وأشفقوا عليه وعرض عليه بعضهم أن يعيره عينه ليبكى بها من شدة ما يعانيه من الوجد فقد سمعوه وهو يخاطب محبوبته:

أميرتى.. لا تغفرى ذنبى فإن ذنبى شدة الحب
حدثت قلبى دائما عنكى حتى قد استحييت من قلبى

ولم يكن يهمه الوقت.. ساعاته وأيامه وشهوره، فالمهم عنده أن يرى وجه محبوبته، وكان دائما ما يناشدها أن تأذن له بزيارتها فهى الداء والدواء، وأن تغفر له شدة نظراته التى تعبر عن شوق ومحبة، ولكنها تصدر عن ضمير عفيف:

اليوم مثل العام حتى أرى
وجهك، والساعة كالشهر
أتأذنون لصب فى زيارتكم
فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به
عف الضمير ولكن فاسق النظر

ولم تجب «فَوزْ» ولم تصل وده.. فاضطر إلى أن يكتب لها بعض أبياته على ورقة وأرسلها لها:

وسعى بها ناس فقالوا إنها هى التى تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم إنى ليعجبنى المحب الجاحد

وعندما وصلتها رقعة الورق.. رقت له فوز وأخبرت رسوله بالموعد، وعندما التقته عاتبته على ما يقوله عنها فى أشعاره.. فهى تخشى الفضيحة والتشهير كما تخشى عليه أن يمنعه سيدها من حضور مجلسه.. فاستمع إليها فى صبر ثم أنشد:

لا جزى الله دمع عينى خيرا وجزى الله كل خير لسانى
نمّ دمعى فليس يكتم شيئا ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طيّ فاستدلوا عليه بالعنوان

وقضيا معا وقتا ليس بالطويل.. ثم استأذنت فى الانصراف.. وغابت عنه مدة لم يرها ولم تراسله، وكان العباس شاكا شاكاا مثل كل المحبين.. فأرسل لها أبيات من الشعر يقول فيها:

أؤملكم حتى إذا ما رجعتموا
أتانى صدود منكم وتجنبوا
فإن ساءكم ما بى من الصبر، فارحموا
وإن سركم هذا العذاب، فعذبوا
وقد ظهرت أشياء منكم كثيرة
وما كنت منكم مثلها أترقب
عرفت بما جربت أشياء جمة
ولا يعرف الأشياء إلا المجرب

وردت «فَوزْ» على الرسول بالعتاب.. وأن العباس دائما ما يذكرها

بالسوء وأنها أحبت فتى من الجند، وهذا شأنها وليس عليها سلطان من أحد، فحزن العباس لما سمع ومرض.. وطال مرضه.. وعندما تعافى خرج مع غلامه إلى الخلاء واستلقى تحت شجرة.. وهو ينشد:

يا سقيـــم الجســـم من محنه مفـردا يبكـــى علـى شجنـــه

كلمـا جـد البكـــــاء بـــه دبـت الأسقـام فى بدنـــــه

وأغمـــى عليـــه.. وعندمـــا أفاق وفتـــح عينيه وجد طائـــرا يغرد على الشجرة.. فقال:

ولقد زاد الفـــؤاد شجـــى طائـــــر يبكى علـى فننه

شفـــه مـــا شفنى فبكـــــى كلنـــا يبكـــى علـــى سكنه

ثم أخذ نفسا عميقا فاضت معه روحه فحمله غلامه إلى المنزل وجهزه وواراه التراب فى جمع غفير من الأصدقاء والمحبين.

□□□

سـلّامة والناسـك!

هذه قصة أخرى من قصص الحـب العـذرى.. حيث العشق الجميل والغـزل العفيف،ولكن طرافتها فى أن العاشـق الولهـان هذه المرة كان ناسـكًا متعبدًا زاهدًا فى حطام الدنيا، متعمقا فى رواية الحديث النبوى مداومًـا على قراءة القرآن الكريم.. ولكن لم يكن قلبه معه! وانطبق عليه القول «جاء هواها فصادف قلبًا خاليًا.. فتمكنا»..

أو كما قال آخر معاتبًا من أغرته:

يا أم عمـرو مـاذا فعلـت بناسـك متوكـل متعبـد

قـد كـان شمـر للصلاة بساعـد لـولا وقفـت لـه ببـاب المسجد

إنـه الحب.. أو العشـق أو الهوى.. سمه كما شـئت وإن لم تعرفه وتجربه فكأنك من حجر جامد من صخر يابس، فالبعض يهوى محبوبته ولا يقاوم لقاءها، كما يشتهى العطشان فى الصحراء.. الماء البارد المثلج.

ويقول الشاعر الأحوص:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا
وإنى لأهواهـا وأهـوى لقـاءها
كما يشتهى الصادى الشراب المبردا

فلقد أحب الناسـك المشـهور بالتقوى والورع بالمدينة المنورة فى فترة

حكم الأمويين عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى والذى اشتهر فيما بعد بالقس، أحب المغنية سلّامة والتى اشتهرت فى تلك الفترة بقراءة القرآن وتلاوة الأشعار، ثم انتقلت إلى الغناء مع شقيقتها ريا، وكان مجلسهما يجمع الشعراء وكبار القوم، وكما فعلت الأديبة مى.. مع كبار الكتاب والشعراء حيث أحسنت معاملتهم جميعا، وكانت ودودة مع الجميع فأحبوها كلهم، فعلت مثلها المغنية سلامة فقد أحسنت التعامل والود مع الجميع فشغف بها كل من رآها وسمعها.

وتصادف أن كان القس عبد الرحمن يسير فى المدينة فسمع غناء سلامة فاستحسنه وفتن به، ثم داوم على التردد واسترقاق السمع ورآه صاحب المنزل وعرض عليه الدخول فأبى وتمنع ولكنه أقنعه بالجلوس فى مكان يراها منه وهى لا تراه، فدخل فعلا واستمع لغنائها، ثم عرض عليه صاحب المنزل أن يناديها ليحدثها ويسمع منها فتحرج من ذلك فى البداية.. ولكنها جلست أمامه وهى تضرب على العود وتغنى.. وسرعان ما تعلق بها.. ووقع هواها فى قلبه وتحول إلى شاعر غزل.. وكان يعطيها شعره لتغنيه.. ومما قاله:

سلام هل لى منكم ناصر أم هل لقلبى عنكم زاجر
قد سمع الناس بوجودى بكم فمنهم اللائم والعاذر

وبمرور الوقت وتعدد اللقاءات تعلقت به سلامة وبادلته حبا بحب.. وانتشرت الأخبار.. وشاعت العلاقة بين الناس وأطلقوا عليها سلّامة القس.. وعاتبوه كيف هو الرجل التقى الورع يقع فى حب مغنية مثل

سلاّمة.. فكان يرد عليهم قائلا:

قالوا: أحب القس سلّامة وهـــو التقى الورع الطاهر
فقلت: لى كبـد كأكبادكم ولى فـؤاد مثلكـم شـاعر

وقـد تأثر القس بما كانـوا يقوله الناس عنه، إلى جانب حبه ووجده بســلاّمة.. وبدأت تظهر عليه علامات الإجهاد والنحول.. لأنه لم يكن يحب حبا عاديا كله سـعادة وفرح وسـرور.. وإنما حبا طاهرا تقيا كله حرمان وألم وضنى وشقاء وكان دائما ما يقول لمحبوبته:

أهـابك أن أقـول بذلت نفسى ولـو أنـى أطيـــع القلب قالا
حيـاء منك حتـى سُـلَّ جسمى وشـق علـىّ كتمـانى وطـالا

من جانبها كانت ســلاّمة تتســاءل عن مصير هذا الحب فكلما ظنت أنها أوشـكت على النهاية.. مثـل كل المحبين.. يتراءى لها فجأة أنه يبعد عنهـا ويبعدها عنه، وعندما كان يلتقيـان.. يتبادلان حديثا عاما ويقدم له بعض أشعاره:

سـلام ويحك هل تحبين من ماتا
أو ترجعين على المحزون ما فاتا

أو قوله فى مناسبة أخرى:

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر
وهـل أنت عن سلاّمة اليوم مقصر

وفى أحـــد اللقاءات اضطرت لمصارحته : أنها والله تحبه فيرد عليها : وأنا والله أحبك، فتتشـجع وتقول: وأنا أشـتهى أن أعانقك، ويجيبها وأنا كذلك، فتسأله : وما يمنعك؟.. وأن المكان خال.. ويجيبها : يمنعنى أن أنعم بحبك فى الدنيا وأشـقى به فى الآخرة فتكون يوم القيامة ممن قال عنهم الله ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، ثم ودعها منشدا :

باتت تعللنا وتحسب أننـــــا فى ذاك أيقـــاظ ونحـن نيـــام
حتـى إذا سطع الصباح لناظـر فـإذا بـذلك بيننـا أحـــــلام

ويعود القس إلى زهده وتقشفه وقراءته للقرآن وروايته للأحاديث ،وتستمر سلاّمة فى غنائها وإمتاع مستمعيها بصوتها وأشعار القس.. الزاهد!

❑❑❑

ذو الرُّمـــة.. الشاعر العاشق

إذا كان الشعر العربى الجاهلى قد بدأ بالملك الضليل امرؤ القيس، فقد ختم بهذا الشـاعر العاشـق غيلان بن غصة من بنى عدى (موطن الحب العذرى وأبطاله المشـهورين)، والذى اشـتهر بلقب (ذو الرُّمة)، وتروى كتب السـيرة لهذا اللقب ثلاثة تفسـيرات، أحدها ما قاله الشاعر نفسه يصـف وتدا عليه قطعة بالية من الحبل: «أشـعث باقى رمة التقليد»، والثانيـة أنه وهو غلام كان يتفزع وهو نائـم، فذهبت أمه لمقرئ القبيلة فكتب له ما يشـبه «الحجاب» فى قطعة من الجلد الغليظ، وعلقته أمه فى رقبته بحبل فسمى ذا الرمة، أما التفسير الثالث فقيل إن حبيبته مية التى شغفت قلبه حبا هى التى لقبته بذلك حين ألَّم بخيمتها يطلب ماء، وكان علـى كتفه رُمة (حبل قديم)، فلمـا أحضرت الماء ولم تكن تعرف اسمه، قالت له: اشرب يا ذا الرُّمة!

وقد وصف شـاعرنا بأنه كان ظريفا حسن الحديث حلو المنطق، مع أنـه كان قصيرا دميما، كما وصفت مية بأنها كانت خمرية اللون عذبة الكلام، وكانت بنت زعيم إحدى القبائل من تميم.

وقصة معرفته بمية بدأت بخروجه وأخيه وابن عمه للبحث عن إبل ضلت العودة من مرعاها، حيث يقيمون بشـرق الجزيرة العربية بالقرب من عشـيرة مية، وعندما شـعروا بالعطش طلب منـه رفيقاه أن يأتيهما بمـاء، فذهب إلى الخيمة القريبة من طريقهم.. فتعرف بمية التى أعطته

مـا أراد وتحدثا قليلا، ولكنه قد وقع فى هواها وعلق قلبه بها، وحكى ما حدث لأخيه وابن عمه فتضاحكا معه وتعجبا له.

ولكنـه لم يتوقف وعاود الزيـارة، حيث اللقاء والحديث الطويل ولم يكن يأبه بما يتحمله من شقة.. بل كان يسعد بذلك كثيرا.. حيث قال:

وكنـت إذا مـا جئت ميًّـا أزورهـا
أرى الأرض تطـوى لى ويدنو بعيدها
من الخفـرات البيـض ود جليسها
إذا ما انقضـت أحـدوثة لو تعيـدها

وكان لذى الرُّمة صديق يسـمى عقبة بـن مالك.. كان يصطحبه معه عندما يعلم أن رجال العشـيرة قد خرجوا منها سواء للرعى أو للحرب، وفى إحدى الزيارات تجمعت حولهما نسوة القبيلة وطلبن من ذى الرمُّة أن ينشدهن من شعره، فطلب من صديقه أن ينشدهن نيابة عنه فأنشدهن من شعر ذى الرُّمة قوله:

وقفت على ربـع لمية ناقتى فمـازلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيـه حتـى كـاد ممـا أبثه تكلمنـى أحجـاره وملاعبـه
فاسبلت العينان والقلب كاتم بمغـرورق نمـت عليه سواكبه

فقالت إحدى النسـاء الحاضرات مخاطبة ميـة: قتلته، قتلك الله، فـردت مية: مـا أصحه وهنيئا له، فتنفس ذو الرمة نفسـا حارا كادت تنهمر بسببه دموع الحاضرات من النسوة!، واللاتى تحركن بعيدا عنهما ومعهـن رفيقه، فبدأ ذو الرُّمة يشـكو لها حبه وشـدة تعلقه بها، وهى

تناكفه وتدعى عليه أنه غير صادق فيما يقول.. وزاد تأثره وذرفت دموعه وأخذ ينشد ويقول:

ولما شكوت الحب كيما تثيبنى
بوجدى قالت إنما أنت تمزح
بعادا وإزلالا علىّ وقد رأت
ضمير الهوى قد كان بالجسم يبرح
لئن كانت الدنيا علىّ كما أرى
تباريح من ذكراك فالموت أروح

فرقت له ودخلت إلى خيمتها وجاءته بقاروة عطر وقلادة، فأهدتهما إليه تعبيرا عن مودة وحب.. وودعها وعاد مع رفيقه إلى دياره.

ولكن مشكلته أن أباها كان من أشراف العرب.. ومن ثم فقد تردد كثيرا فى التقدم لخطبتها، وعندما تقدم إليها فتى من عشيرتها وافق أباها وزفت إليه، ولما علم ذو الرُّمة بذلك اصطحب بعضا من رفقائه محاولا رؤيتها وهم يمنعونه عن ذلك وينصحونه بنسيانها وقد وصف قولهما بشعره حيث أنشد:

أما أنت عن ذكراك مية مقصرُ
ولا أنت ناسى العهد منها فتذكرُ
تهيم بها ما تستفيق ودونها
حجاب وأبواب وستر مسترُ

ولكنــه أصر أن يذهب إلى حيــث تقيم، وتصادف أن حاول ذلك فى ليلــة ظلماء على أمل ألا يتعرف عليــه زوجها، ولكنه عرفه ولم يدخله البيــت وأخرج إليه الطعام بالخارج، وعندما وجد نفســه وحيدا حاول التغنى بأشعاره لعل مية تسمعه فتخرج إليه.. فقال:

أراجعــة يــا مــى أيــامنــا الأولى بذى الأثل أم لا ما لهن رجوع

لقــد حاول تذكيرها بلقائهما بموقع ذى الأثــل لعلها تلين وتلتقيه، ولكن زوجها سمعه وغضب وطلب من مية أن تصيح فيه وتشتمه وتطرده وإلا ضربها بالســيف وقضى عليها، ففعلت بمــا أمرت، فرحل غاضبا باكيا.. ولم يستطع نسيانها فأصابه المرض وسرعان ما حضرته الوفاة.

وقد ترك ذو الرُّمة ديوانا ضخما من الشعر أغلبه فى الوصف وخاصة الصحراء التى كان عاشــقا لها مقيما فيها، وكان يتميز بطول القصائد.. ومنها قصيدته الشــهيرة التى يصف فى بدايتهــا دموعه.. وكأنها مياه تسقط من قربة مقطوعة.. حيث يقول:

ما بــال عينــك منهــا المــاء ينسكــب
كــأنــه مــن كلــى مفــريــة سكــب
استحدث الركب عن أشياعهم خبرا
أم راجــع القلــب مــن أطرابــه طــرب

وكذلــك قصيدته الشــهيرة والتى تصل إلى ثلثمائــة بيت «يا دار مية بالخلصاء».. والتى يقول فيها:

قد هجت يوم اللوى شوقا طرفت به
عينـى فـلا تعجمى من دونى الخبرا
يقـول بالـزرق صحبى إذ وقفت بهم
فـى دار ميـة استسـقى لهـا المطـرا
لـو كـان قلبـك مـن صخـر لصدَّعه
هيْـجُ الديـار لك الأحـزان والذكرا

وهـا هو يخاطب ربه الذى يعلم بحالـه أن يفرج كربه، وإن فاضت روحه يبعده عن النار ويدخله جنته..

يـارب قـد أشـرفت نفسى وقـد علمت
علمـا يقينـا لقـد أحصيـت آثـارى
يا مخرج الروح من جسمى إذا احتضرت
وفـارج الكـرب زحـزحـنى عـن النار

□□□

المنخل اليشكرى .. ضحية العشق الحرام

ودفعتهـــا.. فتدافعـت مشـى القطاة إلى الغدِير
وأحبهـــا.. وتحبنـى ويحب ناقتهـا بعيرى

أعجبنى هذان البيتان للشـاعر الجاهلى المنخَّل اليشكرى.. ودفعانى للبحث عن قصة قائلهما وأشعاره الأخرى.. فاكتشفت أنه صاحب مأساة يجب أن تروى للأجيال الجديدة.

وكانت البداية مع النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وكان يحب الشاعر النابغـة الذبيانـى واتخذه نديما له، وتصادف أن شـاهد النابغة زوجة النعمان مارية بنت الأسـود والتى اشتهرت بـ «المتجردة» وكانت شديدة الجمال وصاحبة حسـن ودلال.. حيث سقط أحد أزرار ثوبها فمالت إلى الأرض تلتقطه.. وشاهدها الشاعر.. فأنشد:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتنـاولتـه واتقتنـا باليـد
بمخضب رخص البنان كأنـه عنقود من فرط الحلاوة يعقد
نظرت إليك بحاجة لم تقضهـا نظر السقيم إلى وجـوه العوَّد

فـى تلك الفترة أيضًا التحق الشـاعر المنخَّل اليشـكرى بمعية الملك النعمـان.. ولكنه لاحـظ أن الأخير يفضل النابغة عليه.. فسـعى ضده ووشـى به وأسمع الملك ما قاله عن زوجته وهو ما يعتبره العرب تشبيبا غـير مقبول.. وشـعر النابغة بما يحاك ضده فهرب إلى الشـام، حيث

الفزازيــن الذيــن كلموا النعمان فيــه فعفا عنه واضطــر النابغة للاعتذار بقصيدة مشهورة بدايتها: يادار مية فالعليا فالسند..

أما شــاعرنا المنخَّل وكان فتى عتيًا جميل الوجه حسن الطلعة.. فقد خلــى له المكان.. ووقع فى حب المتجــردة زوجة النعمان.. التى بادلته حبا بحب.. وتهامس القوم حول العلاقة.. حتى إنهم كانوا يتهامســون بأن أولاد المتجردة من النعمان يشبهون المنخَّل اليشكرى.

وبالطبــع وصلت تلك الهمســات إلى النعمان.. فأمــر بالقبض عليه وتســليمه إلى مسئول سجنه يســمى عكب وأمره بتعذيبه وإحراق جثته وأن يذرى رمادها فى الرياح حتى لا يتعرف أحد على مكان قبره، وقبل أن يلقى المنخَّل حتفه ناشد قومه أن يأخذوا بثأره ممن قتلوه.. وفى هذا قال:

ألا مـــن مبلـغ الحيين عنى بأن القـــوم قـد قتلـوا أبيـا
وإن لـم تثـأروا لى مـن عكب فـــلا رويتـــم أبـدًا صديـــا

والمشكلة أن النعمان لم يكتف بقتل المنخَّل وإحراق جثته، بل أصدر أمــرا بأن كل من يذكر المنخَّل أو يردد قصائده يوقع عليه نفس الجزاء، وقد نجحت خطة النعمان فى القضاء على كل أثر لهذا الشاعر باستثناء قصيــدة «فتاة الخدر» بل إنه أصبح مضرب المثل فيمن يذهب ولا يعرف مصيره.

وقد قال الشاعر ذو الرمة فى ذلك:

تقارب حتى تطمع التابع الصبا وليست بأدنى من إياب المنخَّل

وكذلك الشاعر النمر بن تولب:

وقولى إذا ما أطلقوا عن بعيرهم تلاقونه حتى يؤوب المنخَّل

أما قصيدته «فتاة الخدر» فقيل إنه قالها فى هند بنت عمر شقيقة الملك عمرو بن هند، وقيل إنها هند بنت النعمان وكانت شديدة الجمال.. والراجح أنها فى الأولى، حيث حفظها الرواة قبل أن يلتحق المنخَّل بديوان الملك.. ويلقى حتفه هناك.

والقصيدة يعدها النقاد من عيون الشعر العربى لجزالة ألفاظها ووضوح معانيها ولغتها الشعرية الراقية وإيقاعها الموسيقى الجميل، وقد استلهم معانيها وصورها الموحية شعراء كثر منهم وضاح اليمن وعمر بن أبى ربيعة وحديثا على الجارم.

والقصيدة من ثلاثة مقاطع، الأول منها يحكى عن شجاعة الشاعر وقومه وكلهم من فرسان الخيل الملازمين لظهورها مرتدين لدروعهم استعدادا للإغارة على الأعداء.. وينتهى هذا الجزء بإشادة الشاعر بنفسه، حيث يقول إذا حل الجدب وجدتنى أدور بقدح على كل من فى البيت قريبا أو غريبا:

وإذا الرياح تناوحت بجوانب البيت الكسير
ألفيتنى هش اليدين بمر قدحى أو شجيرى

ثم يأتى المقطع الثانى.. وهو أساس القصيدة، حيث يدخل على فتاته فى مخدعها فى يوم مطير.. ويصفها.. ثم يحكى ما دار من حديث بينهما وأن حبه لها من العمق حتى أن ناقتها - بالعدوى - حبت جمله:

ولقد دخلت على الفتـــاة الخـــدر فـــى اليـوم المطيـر
الكـاعـب الحســـناء ترفـل فـى الدمقس وفى الحرير
فدفعتهـــا.. فتدافعـت مشـى القـطاة إلـى الغديـر
ولثمتهـــا فتنفـــست كتنفـس الظبـــى الغـريـــر
فدنت.. وقـالت: يا منخَّـل ما بجســمك من حـــرور؟
ما شـف جسمـى غيـر جسمك، فاهدئى عنى وسيـرى
وأحبهـــا.. وتحبنـــى ويحـــب ناقتـــهـــا بعيـــرى

ويختم الشـاعر قصيدته بما يسـمى بخيالات النشوة، واصفا حاله وحال الشـعراء جميعـا عندما يجنح بهم الخيال، فيتصور نفســه الملك النعمان صاحب قصر الخورنق وسرير الملك، وعندما يفيق من الخمر يعود لطبيعته.. شاعرا فقيرا لا يملك سوى شاة وبعير.

يارب يـــوم للمنخَّـــل، قـد لهـــا فيـــه قصير
ولقد شـربت الخمـر بالخيـل الإنـاث وبالذكـــور
ولقد شـربت الخمـر بالعبـد الصحيـح وبالأسـير
ولقد شـربت مـن المدامـة بالصغيـر وبالكبـير
فـإذا انتشيـت فإننـى رب الخـــورنق والسرير
وإذا صحـــوت فإننـــى رب الشـــويهة والبعير
يا هنـد مـن لتيـم يا هنـد.. للعـــانى الأسير؟

□□□

المحتـويـات

● **الجزء الأول: هؤلاء الشعراء**

امرؤ القيس ٨
النابغة ١٢
لبيد بن ربيعة ٢٦
أعشى قيس..... ٣٠
عمرو بن كلثوم ٣٥
كعب بن زهير ٣٩
طرفة بن العبد ٤٤
عامر بن الطفيل ٤٩
دريد بن الصمة ٥٥
معن بن أوس ٦١
المهلهل ٦٥
العباس بن مرداس ٦٩
النابغة الجعدى ٧٤
الحطيئة..... ٧٨
الفرزدق ٨٢
جرير ٨٧
الأخطل ٩٢

يزيد بن معاوية ٩٦
أبو تمام ١٠١
أبو نواس ١٠٦
البحترى ١١٥
أبو العتاهية ١١٩
مسلم بن الوليد ١٢٤
ابن المعتز ١٢٨
ابن الرومى ١٣٣
المتنبى ١٣٨
أبو فراس الحمدانى ١٥٦
الحلاج ١٦٢
عمر الخيام ١٦٧
● **الجزء الثانى: مع العشاق**
عنترة وعبلة ١٧٧
عمر بن أبى ربيعة ١٨٢
قيس بن الملوح ١٨٦
قيس ولبنى ١٩٩
جميل وبثينة ٢١٤
عروة وعفراء ٢٢٤
كُثير وعزة ٢٢٩
ديك الجن ٢٣٤

ليلى الأخيلية ٢٤٠
فوز والعباس ٢٤٦
سلامة والناسك ٢٥٠
ذو الرُّمة ٢٥٤
المنخل اليشكرى ٢٥٩

□□□

مؤسسة
دار المعارف
قطاع التسويق وتنظيم المعارض

منطقة	الفرع	العنوان	تليفون	فاكس
القاهرة	الإدارة والمكتبات	٩ شارع كامل صدقة بالفجالة	٢٥٩٠٥٩٤٨	٢٥٩٠١٧٦٦
	مكتبة ثروت	٢٧ شارع عبد الخالق ثروت	٢٣٩٣٦١٢٣	٢٣٩٣٦١٢٣
	مكتبة السيدة زينب	ميدان السيدة زينب ناصية شارع قدرى	٢٣٩١٣٨١٣	
	مكتبة شبرا	١٠٥ شارع شبرا أمام مدرسة التوفيقية	٢٢٠٢٣٨٦٦	
	مكتبة ماسبيرو	خلف دار المعارف ومجلة أكتوبر	٢٥٧٧٠٧٧	
الإسكندرية	مكتبة سعد زغلول	٤٢ شارع سعد زغلول	٠٣/٤٨٠٧٦٤٤ ٠٣/٤٨٠١٣٤٥	٠٣/٤٨٠٧٧٣٨
	مكتبة التحرير	٢ ميدان التحرير بالمنشية	٠٣/ ٤٨٧٩٩٥٣	
	مكتبة محرم بك	مساكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أميروزو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
	جهاز المعارض بالإسكندرية	مساكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أميروزو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
طنطا	المكتبة	خلف مسرح البلدية شارع القنطرة	٠٤٠/٣٣٣٢٣٥١	
المنصورة	المكتبة	شارع الجمهورية بجوار إدارة جامعة المنصورة	٠٥٠/ ٢٣٩٦٢٨٧	
الإسماعيلية	المكتبة	بجوار نادى الشجرة – شارع شبين الكوم	٠٦٤/ ٣٣٤٦١٩٢	
الزقازيق	مكتبة المنتزه	ميدان المنتزه – بالزقازيق	٠٥٥/ ٢٣٠٥٠٢٢	
	مكتبة عرابى	ميدان أحمد عرابى سابقا	٠٥٥/ ٢٣٦٥٠٢٢	

منطقة	الفرع	العنوان	تليفون	فاكس
العريش	المكتبة	شارع الجيش أمام قسم العريش	٠٦٨/ ٣٣٦١٨٩٠	
السويس	المكتبة	سوق فيصل السياحى- حى فيصل	٠٦٢/ ٣١٧٢٩٦٦	
بنى سويف	أسيوط	شارع جلال الدين السيوطى	٠٨٨/ ٢٣٣٤٥٠٤	
	منطقة أسيوط الجديدة	عمارة الأوقاف رقم ٢ ش سعد زغلول	٠٨٨/ ٢٣٣٠٠٠٨	
سوهاج	الإدارة العامة والحسابات	خلف الساحة الشعبية بجوار قصر الثقافة	٠٩٣/ ٢٣٢٤٣٤٧	
قنا	الإدارة والمكتبة	شارع الجميل	٠٩٦/ ٥٣٢٣٢٣٠	
أسوان	الإدارة والمكتبة	السوق السياحى	٠٩٧/ ٢٣٠٣٨٣١	